الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب الشام

كان بالشام قبل الفتح الإسلامي العربي لغات متعددة وعناصر جنسية مختلفة، فقد كان بها ساميون هم سلالة الشعوب التي نزلتها قديما من أموريين وكنعانيين وفينقيين وعبرانيين وآراميين، وكان بها عناصر من شعوب البحر المتوسط في مقدمتهم الإغريق نزلاؤها منذ فتحها الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ قبل الميلاد وخلفته بها الدولة السلوقية الإغريقية لنحو قرنين ونصف. وكان بها سلالات رومية منذ احتلّ الرومان الشطر الأكبر منها في أواسط القرن الأول قبل الميلاد، وظلت اليونانية لعهدهم لغة الثقافة، ودعم ذلك انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى غربية عاصمتها روما وشرقية عاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية وتبعتها الشام، وتألق فيها كما مر بنا غير شاعر ومتفلسف اتخذوا الإغريقية لسانهم وأداتهم في التعبير الوجداني والفكري.

وهيأ كل ذلك لأن تتعدد اللغات في الشام قبل الفتح العربي الإسلامي، وكان من أكثرها شيوعا اللغتان اليونانية والآرامية، ولم نذكر حتى الآن اللغة العربة. مع أن عوامل كثيرة جعلتها تتغلغل في الشام من قديم، لا لجواره للجزيرة العربية وموقعه شمالي الحجاز وغربي بادية السماوة فحسب، بل لقيام ثلثا دول عربية على حدوده وحفافه الشرقية والجنوبية طوال ثمانية قرون أو تزيد قبل الإسلام، وهي دول الأنباط وتدمر والغساسنة. وسبق أن ألممنا بها في فاتحة الفصل الأول، ونبسط الحديث عنها الآن بعض البسط. [١] أما دولة الأنباط فقد ظهرت على صفحات التاريخ منذ القرن الثالث

---

(١) انظر في هذه الدول تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي في مواضع مختلفة من أجزائه وتاريخ العرب مطول لفيليب حتى (الترجمة العربية) وكذلك كتابه " تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين" ٤١٦/١ وما بعدها، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) ص ١٣ وما بعدها وتاريخ العرب لصالح أحمد العلي الجزء الأول وكتابنا العصر الجاهلي ص ٣٣ وما بعدها.

قبل الميلاد، متخذة بطرا عاصمة لها جنوبية. واستطاعت في مطالع القرن الأول قبل الميلاد أن توسع حدودها شمالا حتى منطقة حوران وجبل الدروز، متخذة بُصرى بالقرب من دمشق عاصمة لها شمالية. ويذكر المؤرخون أنه في سنة ٨٥ قبل الميلاد احتل الملك الحارث الثاني النبطي دمشق وغوطتها الخصبة، وبذلك بلغت هذه الدولة ذروة مجدها السياسي، إذ كانت تضم شمالي الجزيرة العربية وشرقي الأردن وجنوبي فلسطين وسوريا الجنوبية، ولم يلبث الرومان أن قضوا عليها في مطالع القرن الثاني للميلاد. والأنباط عرب كانوا يتكلمون العربية في حياتهم اليومية، فهم عرب أصلاء، ولا ريب في أن أنحاء من الشام وخاصة تلك التي سيطروا عليها أخذت تتعرب وتنطق بالعربية لعهدهم. وقد أخذوا عن الآراميين أبجديتهم وكتبوا بها نقوشهم وكلماتها العربية، ومضى خطهم يتطور في بيئتهم وشمالي الحجاز حتى بعد زوال دولتهم، إلى أن نشأ عنه الخط العربي الذي كُتب به القرآن الكريم والذي يتداوله العرب إلى اليوم.

والدولة العربية الثانية تدمر أقامتها القبائل العربية الشمالية بعد سقوط دولة الأنباط داخل بادية السماوة شمالي الجزيرة العربية بين الشام والعراق، متخذين منها مركزاً كبيراً للتجارة مع بلدان البحر المتوسط وبلدان فارس والهند والصين. وبلغت هذه الإمارة أوج مجدها في منتصف القرن الثالث الميلادي لعهد أذينة الذي بسط سلطانه على الشام، مما أتاح للقبائل العربية في دولته التغلغل في ديارها، وكان عاملا في تعرب بعض سكانها حينئذ، غير أن الرومان لم يلبثوا أن قضوا على تلك الدولة في عهد الزباء زوجة أذينة. وبذلك انكمش ثانية التأثير اللغوي العربي في ديار الشام.

على أنه سرعان ما استعاد هذا التأثير فاعليته في عهد الدولة العربية الثالثة: دولة الغساسنة، وقد أخذت في الظهور مع سقوط تدمر، ويرجع النسابون بالغساسنة إلى اليمن وأن قبيلتهم فارقته بعد خراب سد مأرب، واستقرت في شرقي الأردن. وشقت– فيما بعد– طريقها شمالا إلى حوران، واصطدمت في تلك الأنحاء بقبيلة عربية تسمى الضجاعم تمت لها الغلبة عليها، وكانت تتجول في هذه المنطقة الواسعة مع إعلان ولائها للدولة البيزنطية. ويقول النسابون إن جدها الأعلى كان يسمى جفنة بن عمرو مُزيقياء، ولذلك يسمى النسابون الغساسنة أحياناً باسم آل جفنة. وقد اعتنقوا المسيحية منذ القرن الرابع للميلاد، مما يدل على عمق صلتهم وامتزاجهم بأهل الشام المسيحيين.

وتـاريخ ملـوكهم غـامض، وأهمهـم الحـارث بـن جبلـة (٥٢٨- ٥٦٩م) وقـد منحتـه الدولـة البيزنطيـة لقـب فـيلارك أي شـيخ القبائـل وأميرهـا. كمـا منحتـه لقـب البطريـق وهـو أعظـم الألقـاب فـي الدولـة البيزنطيـة بعـد لقـب الإمبراطـور. وأهـم مـن ذلـك أنـه زار بيزنطـة واسـتطاع أن يقنـع إمبراطورهـا وحواشـيه بتعيـين يعقـوب البرادعـي أسـقفا علـى الكنيسـة المونوفيسـتية السـورية، وكانـت تخـالف العقيـدة الرسـمية للكنيسـة البيزنطيـة. ويقـال أن يعقـوب رسـم مائـة ألـف كـاهن ونصّـب تسـعة وثمـانين أسـقفا فـي الـبلاد. ومعنـى ذلـك أن الحـارث بـن جبلـة كـان يعـد أقـوى سـيد فـي سـوريا والشـام، ولـذلك دلالتـه البعيـدة فـي نفـوذ القبيلـة بالشـام وفـي مـدى مـا حـدث حينئـذ مـن تعـرب بـع الشـاميين وخاصـة مـن رجـال الكنيسـة اليعقوبيـة. وكـان الغساسـنة كثيـري الحركـة والتنقـل مـن بقعـة إلـى أخـرى، وتتـردد علـى ألسـنة مـادحي ملـوكهم مـن الشـعراء ذكـر جلـق وكانـت منـازل بـالقرب مـن دمشـق علـى نهـر بـردي المشـتهر ببسـاتينه، وأشـهر مـن جلـق الجابيـة وكانـت علـى مسـافة يـوم مـن دمشق إلى الجنوب الشرقي.

وإنمـا أطلنـا فـي بيـان ذلـك كلـه لنـدل علـى أن الشـام كانـت قـد أخـذت تسـتعرب منـذ قـرون عـدة قبـل الإسـلام، ولا ريـب فـي أن الفـتح الإسـلامي العربـي زاد هـذا الاسـتعراب حـدة وقـوة، وخاصـة أن قبائـل الغساسـنة وقاعـة وغيرهمـا ممـن كـانوا اعتنقـوا النصـرانية نبـذوا سـريعا الـدين المسـيحي ودخلـوا فـي الـدين الحنيـف، ودخلـه معهـم كثيـرون مـن أهـل الشـام لمـا رأوا فـي شـريعته السـمحة مـن الإنصـاف والمسـاواة بـين النـاس ومـن العـدل الـذي لا تصـلح حيـاة أمـة بدونـه. وكـان حكـامهم البيزنطيـون قـد أسـاءوا معـاملتهم إلـى أبعـد حـد وسـاموهم ضـروبا مـن العـذاب والخسـف وأرهقـوهم بالضـرائب الفادحـة إرهاقـا لا يطـاق، بينمـا رأوا حكـامهم المسـلمين الجـدد يرفعـون عـنهم كـل ظلـم وكـل ثقـل فـي الضـرائب مسـوين بـين كـل مـن يسـلم مـنهم وبـين الجنـد الفـاتح فـي جميـع الحقـوق، غيـر مسـتأثرين لأنفسـهم بشيء، مهما يكن قليلا أو تافها. فلا عجب أن يدخلوا في الدين الحنيف أفواجاً.

وقـد اسـتوطن الشـام كثيـر مـن الجنـد الفـاتحين لـه، وكـانوا مـن قبائـل مختلفـة شـمالية وجنوبيـة وظلـت الجزيـرة العربيـة ترفـدهم بسـيول طـوال الحقـب الأولـى للحكـم الأمـوي، واسـتقرت منهـا عشـائر وبطـون فـي بلـدان الشـام حتـى بلدانـه الداخليـة مثـل حمـص وطـرابلس وبيـروت وقيسـارية وغيرهـا مـن مـدن سـوريا ولبنـان وفلسـطين. وبـذلك حـدث مـزج

قوي بين العرب المهاجرين وبين أهل الشام لا عن طريق الإقامة والاستيطان فحسب بل أيضا عن طريق المصاهرة والاختلاط اليومي بين الأسر والناس، مما دفع بقوة إلى استعراب الشام سريعاً. وظل من أهم دوافعه دخول الأسر الشامية أو بعض أفرادها في الإسلام، إذ جزء لا يتجزأ منه تلاوة القرآن، ولن يستطيع أحد أن يتلوه تلاوة سديدة دون تعلم لغته، أو بعبارة أخرى دون استعرابه. وربما كان مما يؤكد كثرة من اعتنقوا الإسلام بعد الفتح مباشرة الخبر الذي مر بنا في الفصل الماضي عن أبي الدرداء قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة أن عدد من كان يشرف عليهم يوميا في تلاوة القرآن بمسجد دمشق ألف وستمائة ونيف، وكان وراءهم آلاف مستعربون لا يحتاجون إلى من يعلمهم تلاوة القرآن الكريم.

ونظن ظنا أن الاستعراب في الشام أصبح أمنية أهلها جميعا: من أسلم منهم ومن ظل على دينه المسيحي لسببين مهمين: أولا لتفوق العربية على الآرامية التي كانت شائعة على الألسنة، إذ لم يكن لها تراث أدبي كالعربية، ولا كان لها جمالها في الجرس وحسن الإيقاع، وثانياً لأن الدولة الأموية اتخذت دمشق عاصمة لها واستعانت بكثير من أهلها المسيحيين في الإدارة وشئون الخراج والمال، فأكبّ كثير من المسيحيين على العربية يحاولون أن يتعلموها وان يتقنوا الأداء بها حديثا وكتابة. وينبغي أن لا ننسى ما كان قد حدث من استعراب هذه العناصر المسيحية قبل الإسلام وخاصة بين التجار ورجال الكنيسة اليعقوبية.

وربما كان من أكبر الأدلة على ما كان قد حدث من استعراب كثيرين من أهل الشام الأصليين قبل الإسلام أننا نجد أسرة مسيحية مستعربة تعمل مع معاوية وخلفائه الأمويين في إدارة الشئون المالية، ونقصد أسرة سرجيوس (وفي بعض المصادر سرجون) ويُظن أنه كان حاكما لدمشق قبل الفتح العربي الإسلامي واتخذه معاوية مستشارا له في الشئون المالية مع بقائه معتنق لدينه المسيحي، وكان حفيده يوحنا الدمشقي يشرف على الشئون المالية بدوره لعهد عبد الملك بن مروان وما زالت هذه الأسرة المسيحية تعاون الخلفاء في شئون المال والخراج حتى أمر الوليد بن عبد الملك بتعريب الدواوين كما هو معروف.

ومن أكبر الأدلة أيضا على استعراب العناصر المسيحية أننا نجد نفرا منهم يعنى بترجمته ترجمة مبكرة لبعض العلوم اليونانية، على نحو ما ذكر صاحب الفهرست عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه تُرجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء.(١) ولا شك في أن هؤلاء المترجمين كانوا مستعربين، بل كانوا يحذقون العربية حتى استطاعوا أن ينقلوا منها لخالد بن يزيد ما نقوله من المعارف المتصلة بتلك العلوم. ويسمى ابن خلكان في ترجمته لخالد أحد أولئك المترجمين وهو مريانوس الراهب الرومي الذي اخذ عنه خالد علم الكيمياء أو كما كانوا يسمونه علم الصنعة. ويقول ابن خلكان إن لخالد فيها ثلثا رسائل تضمنت إحداهن ما جرى له مع مريانوس الراهب المذكور وصورة تعلمه منه والرموز التي أشار إليها[٢].

ولم نتحدث عن اليونانية التي كانت معروفة في الشام قبل الإسلام، وأكبر الظن أنه انحازت إلى الأديرة، وقد رأينا آنفا أن خالد بن يزيد بن معاوية استعان في علم الصنعة وما ترجم إليه منه براهب رومي، وأكبر الظن أن الرهبان في دمشق ومدن الشام من أنطاكية إلى غزة كانوا قد أخذوا في التعرب ليستطيعوا الحديث إلى مسيحي الشام المستعربين، ولعل في كل ما تقدم ما يوضح العوامل الكثيرة التي دفعت إلى تعرب الكتلة الكبرى من أهل الشام مسلمين ومسيحيين.

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٣٣٨.

(٢) انظر ترجمة خالد في ابن خلكان ٢/٢٢٤.

obeikandl.com

٢

كثرة الشعراء

يلاحظ أن عرب الشام قبل الإسلام لم يكن لهم نشاط يذكر في تاريخ الشعر العربي لا عند الغساسنة ولا عند غيرهم من القبائل الشامية، حتى إذا كانت الفتوح وهاجر كثيرون من القبائل القيسية مثل عامر وسليم إلى فلسطين وسوريا أخذ الشعر ينشط في الشام وأخذ الشعراء يتكاثرون وخاصة مع الأحداث الكبرى على نحو ما يلقانا في المعارك التي نشبت بعد وفاة يزيد بن معاوية وتوّلى مروان بن الحكم للخلافة بين القبائل اليمنية وفي مقدمتها قبيلة كلب والقبائل القيسية منذ موقعة مرج راهط وغيرها من المواقع. ونلتقي عقب هذه المواقع بشاعرين كبيرين للشام هما عدى بن الرّقاع العاملي اليمني والطرماح الطائي اليمني، أما عدى بن الرقاع فشاعر عبد الملك بن مروان والخلفاء من بعده، وله ترجمة في كتابنا العصر الإسلامي بين شعراء بني أمية، وأما الطرماح فنشأ في الشام ونزل الكوفة مع بعض جيوشها واستقر بها، واعتنق فيها مذهب الصفرية من الخوارج، وله ترجمة في كتابنا المذكور بين شعراء الخوارج.

وكانت الشام طوال عصر بني أمية تغص بشعراء الحجز ونجد والعراق والوافدين على الخلفاء لمديحهم واخذ نوالهم وعطائهم. وما نبغ شاعر واشتهر في هذه البيئات إلا رحل إلى دمشق يمدح هذا الخليفة أو ذاك، والخلفاء يغدقون على الشعراء جوائزهم وصلاتهم على نحو ما هو معروف عن شعراء العراق: الفرزدق والأخطل وجرير وعبد الله بن الزبير وذي الرُمة والعجاج وابنه رُوبة. ومثلهم من شعراء الحجاز كثيّر والأحوص وابن قيس الرقيات. ومدهم من شعراء نجد كثيرون وفي مقدمتهم الراعي النميري. وكن الأمويون يعدونهم ألسنتهم ودعاتهم في بيئاتهم، فأجزلوا لهم في العطاء، وكانوا ما يزالون غادين عليهم رائحين بقصائد طنانة يرويها الرواة في كل مكان بالشام وغير الشام.

وليس ما قدمناه كل ما كان بالشام من نشاط الشعر والشعراء لعهد بني أمية، فقد شارك غير خليفة في هذا النشاط، إذ كان بينهم شعراء بارعون هم يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك وابنه الوليد، واشتهر الوليد بأنه يعيش للهو والقصف وجلب المغنين والمغنيات من الحجاز وإقامة الحفلات لهم في قصره، وشعره يستغرقه الغزل والتغني بالخمر حتى بعد خلافته، مما أعدّ بسرعة لسقوط الدولة الأموية، وله ترجمة في كتابنا العصر الإسلامي.

وتنتقل الخلافة في العصر العباسي إلى بغداد، ويظل للشام نشاطها في الشعر، وهو نشاط لا يقف عند مجرد نظمه على طريقة الإسلاميين والجاهليين، إذ نرى شعراءها يصدرون في شعرهم عن النزعات التجديدية التي نُظم الشعر العربي على أضوائها في صدر الدولة العباسية. ومن كبار شعرائها الذين لمعت أسماؤهم في القرن الثاني الهجري عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي معاصر الرشيد، وكان من الفلجة " من أرض دمشق"، وترجم له ابن المعتز في كتابه " طبقات الشعراء" وأشاد بشعره إشادة رائعة. وممن كان يعاصره من الشعراء الشاميين العتابي وكان يحتذي- كما يقول الجاحظ- حذو بشار بن برد في البديع وله ترجمة في كتابنا العصر العباسي الأول. وعلى غِراره تلميذه منصور النمري الشامي، وله أيضا ترجمة في كتابنا العصر العباسي الأول. وبالمثل في هذا الكتاب ترجمة لشاعر شامي مهم عاش في القرنين الثاني والثالث هو ديك الجن. فالشام لم تنشط في الشعر طوال العصر العباسي الأول فحسب، بل قدمت إليه أعلام من الشعراء النابهين شاركوا في نهضته وازدهاره بل أكثر من ذلك لقد تطورت بصور البديع الحسية التجديدية أضافت إليها صورا جديدة من بديع وزخرف معنويين رائعين، وبذلك استحدثت للشعر العربي مذهبا جديدا هو مذهب التصنيع أو التنميق الحسي والفكري، على نحو ما هو معروف عن أبي تمام أستاذ هذا المذهب الذي أعطاه صيغته النهائية، وقد أوضحنا ذلك إيضاحا تاما في كتابنا " الفن ومذاهبه في الشعر العربي". وتلاه تلميذه البحتري، ولم يكن له ثقافته وتعمقه في النفوذ إلى دقائق الأفكار، ومع ذلك تمسك بالمذهب وبخاصة جوانب البديع الحسي مع تمسك شديد بمقومات الشعر العربي وتقاليده في الصياغة، وكان لا يبارى في الضرب على قيثارة الشعر العربي واستخراج أروع النغم منها أحلاه. وأكبت الأجيال التالية في العالم

العربي على دراسته ودراسة أستاذه متخذة منه نموذجا للتمسك بعمود الشعر العربي وصياغته، كما اتخذت من أستاذه نموذجا للبديع الحسي المعنوي الذي يرضى المتفلسفة والمتعمقين في المعاني. وانقسم النقاد مع الشاعرين وفنهما إلى صفين متقابلين، وكل ذلك حاولنا تصويره في كتابنا " الفن ومذاهبه في الشعر العربي " ولأبي تمام ترجمة في كتابنا " العصر العباسي الأول " وللبحتري في كتابنا " العصر العباسي الثاني ". ونشرف بعد البحتري على نهاية القرن الثالث، ولا تزال للعصر العباسي الثاني بقية زمنية، وفيها يسطع نجم شاعر الطبيعة الحلبي الصنوبري وله ترجمة في كتاب هذا العصر.

ونمضي في عصر الدول والإمارات، وقد عُنى بالحديث عن شعراء القرن الرابع الهجري ومطالع القرن الخامس الثعالبي في يتيمته، متحدثا عن الشعراء النابهين في أقاليمه من أواسط آسيا إلى الأندلس ويلاحظ في فواتح كتابه أن كفة الشعر العراقي التي كانت تجعله يرجح على جميع الأقاليم العربية شاما وغير شام قد خفت وخلفتها كفة الشام، إذ يستهل يتيمته بقوله: " الباب الأول من القسم الأول في فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان وذكر السبب في ذلك ثم يقول: " لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها اشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام.. والسبب في تبريز القوم قديما وحديثا على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز، وبعدهم عن بلاد العجم، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق لمجاورتهم للفرس ونبط (فلاحي) العراق ومداخلتهم إياهم.. ورُزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان.. وهم بقية العرب، والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم، والمع بين أدوات السيف والقلم، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده، ويثيب على الجيد منه فيُجذل ويفضل". ولسنا نريد أن نناقش الثعالبي في هذا الحكم، فإنه– على ما فيه من مبالغة– يدل على ما حدث بالشام مع مطالع عصر الدول والإمارات من نهضة شعرية حقيقية تنبئ عنها الأبواب التالية في اليتيمة، فقد جعل الثعالبي الباب الثاني لسيف الدولة الحمداني أمير حلب وشماليّ الشام وملح شعره وغزواته الحربية المظفرة على لسان شعرائه. وقصر الباب الثالث على أبي فراس الحمداني الشاعر والفارس المشهور. وخص الباب الرابع بملح أشعار آل حمدان أمراء

الشام وقضاتهم وكتابهم. وأفرد الباب الخامس للمتنبي شاعر سيف الدولة من شعراء الشام والعراق.

ومرّ بنا كيف أن حلب في زمن سيف الدولة (٣٣٣- ٣٥٦ هـ) استحالت أكبر مركز علمي وفلسفي ولغوي، إذ نزلها كثير من العلماء والمتفلسفة واللغويين أمثال الفارابي وأبي علي الفارسي وابن جني غير من كان بها من الأطباء وعلماء الفلك. ولا يهمنا الآن بيان ذلك إنما يهمنا أنها أصبحت مركز الشعر والشعراء في تلك الحقب، إذ لم يبق شاعر كبير في الشام أو في العراق أو في إيران إلا أمّها وأسبغ عليه سيف الدولة من نواله، حتى ليقول الثعالبي إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك- بعد الخلفاء- ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر" منهم كشاجم- ويقال إنه كان طبّاخة- والخالديان- وكانا خازني مكتبته- والسلاّمي والسّري الرفاء والوأواء الدمشقي والنامي المصيصي وابن نباتة السعدي والببّغاء، وكل هؤلاء كانوا شعراء، وترجم لهم الثعالبي، ووراءهم كثيرون كانوا يفدون على سيف الدولة مادحين ثم يعودون بالعطاء إلى أوطانهم شاكرين مثنين.

ومضت الشام في نهضتها الشعرية وظهر فيها أمثال عبد المحسن الصوري وأبي الرقعمق والواساني وجميعهم ترجم لهم الثعالبي، ويعني الباخرزي في دمية القصر بذكر طائفة من شعراء الشام خاصة من مدح منهم الوزير السلجوقي نظام الملك، وترجم لأبي العلاء المعري وابن سنان الخفاجي تلميذه ترجمة قصيرة. وبعض من ترجم له ألم به العماد الأصبهاني في الخريدة. ولم يُعن أحد من أصحاب التراجم الشعرية بشعراء النصف الثاني من القرن الخامس ومطالع القرن السادس، ومن أعلام الشعراء الشاميين في تلك الحقبة ابن حيّوس وله ديوان ضخم في مجلدين.

ويعرض العماد الأصبهاني في خريدة القصر تراجم مستفيضة لنحو مائة وثلاثين شاعرا جمهورهم من شعراء القرن السادس حتى زمن كتابته أو تأليفه للخريدة في أوائل العقد الثامن من القرن، وهم يشغلون ثلاثة أجزاء، أولها خصا بشعراء دمشق والشعراء الأمراء من بني أيوب، وناره في مطلع هذا الجزء يشيد بشعر الشاميين ويرفعه درجات على شعر أهلي العراق، بالضبط كما صنع الثعالبي، يقول: " شعر الشاميين أصح وزناً، وأسحُ مُزناً، وأمتن صيغة، وأحسن صبغة، وأحكم صنعة، وأسلم رقعة، وأرفع

نسجا، ،أنفع مزجا، ،أقوم معنى، وأحكم مبنى " ويُشيد بطائفة من قدمائهم مثل البحتري وأبي تمام وطائفة من محدثيهم بعدهما مثل عبد المحسن الصوري وابن سنن الخفاجي وابن حيوس، وكأني به نسى أبا العلاء عامدا لشهرته الواسعة. ويترجم في هذا الجزء لابن الخياط الدمشقي تلميذ ابن حيوس وديوانه مطبوع. وتلا العماد ذلك بجزء اشتمل على خمسة وأربعين شاعرا بينهم أهم من أنجبتهم الشام في القرن السادس الهجري من الشعراء أمثال الغزي وابن منير الطرابلسي والقيسراني وعرقلة وديوانه مطبوع وفتيان الشاغوري وديوانه مثله مطبوع وابن قُسيم الحموي وأسامة بن منقذ وديوانه مطبوع. ويتبع ذلك بنى الحُصين، ويذكر طائفة من شعراء حلب ربما كان أهمها حماد الخرّاط. وكأن العماد لم يترك في الشام لزمنه شاعرا كبيراً ولا صغيرا إلا ترجم له.

واهتمت كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام بعد زمن العماد في أيام الأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وفي مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان و فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي والوافي بالوفيات للصفدي ومطالع البدور للغزولي والدرر الكامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوي وريحانة الألبا للخفاجي ونفحة الريحانة للمحبى وسلك الدرر للمرادي. فكل هذه الكتب تحمل عشرات من شعراء الشام في حقب وأزمنة مختلفة، وكثير من نابهيهم في تلك الأزمنة والحقب أيام الأيوبيين ومن بعدهم لهم دواوين مطبوعة مثل ديوان ابن الساعاتي والصاحب شرف الدين الأنصاري وأيدمر المحيوي والشاب الظريف وأبيه عفيف الدين التلمساني وابن الوردي وابن النقيب الدمشقي، وتموج رفوف المكتبات في العالمين العربي والغربي بدواوين كثيرة لشاميين لا تزال مخطوطة.

٣

شعر دوري- رباعيات- موشحات- بديعية- تعقيدات

(أ) الشعر الدوري

منذ ابتدع الشعراء في العصر العباسي الأول الشعر المزدوج الذي يتكون من شطرين متقابلين، وتتوالى فيه الشطور المتقابلة، والشعراء يكثرون منه في جميع الأقاليم الإسلامية، وهيأ ذلك لظهور أنماط مختلفة من الشعر الدوري الذي تتكون فيه القصيدة من أدوار متعاقبة، ويغلب أن يكون كل دور ببيتين، وتقل الأدوار وتكثر حسب رغبة الشاعر، وتفرع عن هذا النمط من قديم عند أبي نواس وأضرابه من المسمطات وعادة يتكون الدور فيه من أربعة شطور يليها شطر خامس وكأن الشطر الخامس بقافيته المكررة ياقوته في عقد تلتقي عندها أسلاكه المختلفة، وتسمى هذه القافية المكررة عمود القصيدة. وكلما تقدمنا في العصر كثرت هذه المسمطات، وهي قد تكون رباعية بمعنى أن قافية الشطر الرابع هي المكررة، وقد تكون خماسيا كما ذكرنا، وقد تكون ساعية أو تساعية، وممن عنى بالنظم فيها أسامة بن منقذ ففي ديوانه منها أربعة مسمطات خماسية، ومن قوله في أحدها[١]:

كم رُضتُ نفسّي بالسلوان فامتنعت ... وكم أضاعوا مواثيقّ الهوى ورَعَتْ

وما نقمتُ عليهم غدرةّ فصغتْ [٢] ... ولا أضعتُ لهم عهدا ولا أطلعتْ

وعلى ودائعهم في صدريَ التهمُ

وقافية الشطر الأخير مكررة في الشطر الخامس من كل دور، وواضح أن المسمط خماسي الشطور، وتلقانا أمثلة للمسمطات في دواوين ابن الساعاتي والصاحب شرف الدين الأنصاري وأيدمر المحبوي زمن الأيوبيين، ومضى الشعراء في الحقب التالية يكثرون منها وخاصة صلاح الدين الصفدي، ونظل نلتقي بها في الحقب المتأخرة.

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ (طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة) تحقيق الدكتور أحمد بدوي والدكتور حامد عبد المجيد ص ٤٠.

(٢) صغت: مالت

obeikandi.com

(ب) الرباعيات

معروف أن الرباعية أربعة شطور تؤلف بيتين، وتتحد الشطور: الأول والثاني والرابع في القافية وقد يتحد مع تلك الشطور الشطر الثالث في القافية وقد يختلف. وللرباعية وزنان هما: " فعلنّ فعلن مستفعلن مستفعلن " و " فعلن متفاعلن فعولن فعلن " وقد أخذت تشيع على ألسنة الشعراء في هذا العصر وخاصة منذ القرن السادس، نجدها عند ابن قُسيم الحموى المتوفى سنة ٥٤١ للهجرة وعند عرقلة المتوفى سنة ٥٦٧ وفي خاتمة ديوانه منهما اثنتا عشرة رباعية، منها قوله:

ويلاه على المهفهف المياسِ ما أحسنه ولو بقلبٍ قاسِ

يهتزُ كأنه قضيبُ الآسِ سكرانَ ولم يذُقْ حمياً الكاسِ

وذكر ابن خلكان انه كان للعماد الأصبهاني ديوان صغير جميعه دُوبيتات أو رباعيات، وطائفة فيها كانت بلسان نور الدين في الحث على جهاد حملة الصليب وتمزيق جموعهم، من مثل قوله[١]:

لا راحة لي في العيش إلا أغز وسيفي طرباً إلى الطُلى يهتز [٢]

في ذلّ ذوى الكفر يكون العزُّ والقدرةُ في غير جهادٍ عجزُ

وكان لفتيان الشاغوري المتوفى سنة ٦١٥ جميع ما فيه دوبيتات، رآه ابن خلكان وأنشد منه في ترجمته قوله:

الوردُ بوجْنتيك زاهٍ زاهْر والسّحرُ بمقلتيك وافٍ وافرْ

والعاشقُ في هواك ساهٍ ساهر يرجو ويخاف فَهْوَ شاكٍ شاكْر

ونظل نلتقي بالرباعيات في دواوين الشعراء أيام المماليك بل أيضا أيام العثمانيين عند حسن البوريني وبهاء الدين العاملي وعبد الغني النابلسي وغيرهم من الشعراء [٣]

---

(١) الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة (طبع مطبعة وادي النيل) ٢٠٧/١

(٢) الطلى: جمع طلاة أو طلية: العنق أو صفحته.

(٣) انظر مثلا ريحانة الألبا للخفاجي ٢١/١، ١٠٤/١.

obeikandi.com

وحين شاعت التورية بثها الشعراء في رباعياته كقول على بن المظفر الوداعي الحلبي المتوفى سنة ٧١٦ متغزلاً [١]:

لما حُجب الكَرَى عن الآماقِ وانقاد مع العِدا على العُشاقِ

ناديتُ وقد تزايدتْ أشواقي يا غُصْنُ رضيتُ منك بالأوراق

والتورية واضحة في كلمة الأوراق، إذ لها معنيان قريب وهو أوراق الغصن وبعيد وهو أوراق الرسائل المتبادلة بينه وبين صاحبته، وهو المراد

(جـ) الموشحات

الشائع المعروف أن الموشحات من اختراع الأندلسيين وأنهم سبقوا إليها المشارقة، ومعروف أنها تتألف من شطور تسمى قفلا وشطور تليها تسمى أداورا أو أغصانا، ومن خَرجةٍ يسمىّ بها القفل الأخير في الموشحة. ومن ينعم النظر فيها يؤمن بأنها تطورت من أشكال المسمطات، واستقلت بهذه الصورة، ويبالغ المستشرقون الإسبان- خاصة- قائلين إنها فن أندلسي خالص تطور عن أغان رومانسية كانت معروفة في القرنين الرابع والخامس للهجرة، ولم يقدموا أغنية واحدة تشهد لذلك، بينما يوجد لدينا شكل من أشكال المسمط نظمه ديك الجن الحمصي المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة نظن ظنا أنه الأب الحقيقي للموشحات الأندلسية إذ يجرى على هذا النمط [٢]:

قولي لَطْيفك ينثنى عن مضجعي عند المنامْ

عند الرُقادْ عند الهجوعْ عند الهجودْ عند الوَسَنْ

فعسي أنامُ فتنطفي نارٌ تأجَّجُ في العظامْ

في الفؤادْ في الضلوعْ في الكبودْ في البَدَنْ

ويستمر المسمط الموشح على هذه الصورة، وواضح أنه نشأ من فكرة بسيطة هي تكرار قافية البيت برويّ جديد. وكأنما وقع هذا المسمط الغريب أو قل هذا الموضح الفريد لمقدم بن معافى شاعر الأمير الأندلسي عبد الله بن محمد المرواني (٢٧٥-

(١) خزانة الأدب للحموي (طبع مطبعة بولاق ص ٣٤٤)

(٢) خزانة الأدب للحموي ص ٩٧.

obeikandl.com

٣٠٠ هـ) فنظم على صورته بعض منظوماته وكُتب لهذه الصورة عنده أن تشيع بعده في الأندلس باسم الموشحات على نحو ما أوضحنا ذلك مرارا في كتاباتنا. وحملها إلى المشرق الأندلسيون المهاجرون إلى مصر والشام ووضع لها ابن سناء الملك قوانينها الموسيقية في كتابه " دار الطراز" وبذلك فتح أبوابا تلك الموشحات على مصاريعها للمشارقة كي ينظموا على غرارها منذ زمنه في أواخر القرن السادس. وأيضا فإنه كان قد نزل الشام بعض الأندلسيين من ناظميها، فكانوا من أسباب إشاعتها مثل عبد المنعم الجلباني الأندلسي الطبيب نزيل دمشق في زمن صلاح الدين وظل بها إلى وفاته، وله فيه مدحه سميت التحفة الجوهرية، ويقول ابن أبي أصيبعة: له " ديوان غزل وتشبيب وموشحات ودُوبَيْتات " أو رباعيات. ونظل في زمن الأيوبيين والمماليك نلتقي بوشاحين مختلفين. وللصلاح الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ كتاب في الموشحات سماه: توشيع [١] التوشيح ذكر فيه إحدى وستين موشحه من عيون الموشحات الأندلسية والمصرية والعراقية والشامية، وذكر موشحا طريفا لشمس الدين محمد بن على الدهان المتوفى سنة ٧٢١، ويقول ابن شاكر إنه كان يحترف صناعة الدهان وينظم الشعر الرقيق وكان على علم بالموسيقى والألحان، فكان ينظم الشعر ويلحنه ويغني فيه المغنون [٢]، ويسوق نفس الموشح الذي ذكره الصفدي، ويستهله بقوله:

بأبي غُصن بانة حملا بَدْرَ دُجى بالكمال قد كملا أَهْيَفْ

فريد حُسنٍ ما ماس أو سفرا

إلا أغار القضيبَ والقمرا

يُبْدى لنا بابتسامة دررا

والموشح وافر الموسيقى واللحن والنغم. وذكر الصفدي بجانب هذا الموشح موشحا لجمال الدين يوسف الصوفي المتوفى سنة ٧٥٠. وهو يفيض بالعذوبة وجمال اللفظ والصور كقوله:

ساحرّ بالدلال ساخرّ بالصّبّ فائق الكمالْ لائقّ بالحبّ

---

(١) حقق هذا الكتاب ألبير مطلق ونشره بدار الثقافة ببيروت.

(٢) راجع ترجمته في فوات الوفيات ٤٩٢/٢ والوافي ٢٠٩/٤ وانظر عقود اللآل للنواجي ص ٧٧.

بشَذَا المسك فاحْ ثغرُ هذا الغزالْ

باسمّ عن أقاحْ كفريدِ اللآلْ

ردّ نورّ الصباحْ كظلام الليالْ

وأنشد الصفدي لنفسه في كتابه سبعاً وثلاثين موشحة، وكثير منها معارضات لموشحات مشهورة لأندلسيين وغير أندلسيين، وقلما يحلق إلى أفق الموشحات التي يعارضها، ويغلب التكلف على موشحاته، وفي أحيان قليلة يسلسل في بعض الموشحات وبعض المقاطع كقوله في معارضة موشحة لابن اللبّانة الأندلسي:

بات بَدْري وهْو معتنقي أحتسى فاهُ وأرتشفُ

ويه أمسيت متحداً

بعد ما قد كنت منفردا

وغدا بدر السما كَمِدَا

وقد انشد النواجي في كتابه عقود اللآل تسع موشحات لابن حبيب الحلبي وموشحتين لابن حجة الحموي[١].

ويلقانا وشاحون مختلفون في زمن العثمانيين على نحو ما يذكر المحبي عن أبي بكر العمري وأبي بكر العصفوري [٢]ولابن النقيب المتوفى سنة ١٠٨١ موشح استلهم فيه موشحا مشهوراً للسان الدين ابن الخطيب استهله بقوله [٣]:

يا ليالي السّفْح من عهد الصّبا يا سَقَى مغناكِ صوبُ الدّيمِ

كم تسرّقتُ بها بني الرُبَى خُلسَا مَرتْ كطيفِ الحلمِ

وتكثر الموشحات الصوفية عند عبد الغنى النابلسي كثرة مفرطة. ونقف قليلا عند وشاحيْن مهمين هما أيدمر المحيوي والمحار الحلبي.

---

(١) انظر فهرس عقود اللآل للنواجي.

(٢) نفحة الريحانة للمحبي ٢٢/١، ٢٥٤.

(٣) ديوان ابن النقيب نشر المجتمع العلمي العربي بدمشق ص ٢٦٣.

obeikandi.com

أيدمر المحيوي[١]

لا نعرف شيئاً عن نشأة هذا الشاعر ومرباه، وكل ما بأيدينا عنه أنه عتيق محيي الدين محمد بن محمد بن سعيد بن ندى وزير الجزيرة لسلاطينها من الأيوبيين، وقد طبعت له دار الكتب المصرية مختارات من ديوانه، وهو فيها يمدح الملك الكامل سلطان مصر مشيداً بانتصاره على حملة الصليب في موقعة دمياط سنة ٦١٨. وكان يسكن دمشق ويزور مصر كثيراً وله مدائح في الصالح نجم الدين أيوب حين كان يلي شئونها منذ سنة ٦٣٦ إلى سنة ٦٤٧ ويبدو أنه لم يعش بعد هذا التاريخ طويلاً، وله غزليات وأشعار طريفة في الطبيعة، وله- بجانب ذلك- موشحان في المديح يستهلهما بغزل بديع، وقد عارض في موضحه الأول ابن زهر في موشح له مشهور، ومن قوله فيه على نسقه:

هزّ عِطْفَ الغصن من قامتهِ

مُطْلعا للشمس من طلعتهِ

ثم نادى البدرَ في ليلته

أيها البدرُ تغّيبْ ويْحكَا ما الناس للبدر معي احتياجُ

وعذوبة موسيقاه واضحة في هذا الموشح، وكان يضيف إليه في أحيان كثيرة محسنات البديع من طباق وجناس وتورية، ولا تفارقه هذه العذوبة حتى حين يجنح إلى التكلف على نحو ما نلقاه في موشحه الثاني وفيه يقول:

بات وسُمّاره النجوم ساهرْ فمن تُرى علمكِ السُهْد يا جفون

صبا إلى مذهب التصابي صابي لا يعدل

فجَنْبه خافق الجناب نابى مُبَلبل

والطرف من دائم انسكاب كابى مخبّل

---

(١) انظر في أيدمر فوات الوفيات ١٤٠/١ والانتصار بواسطة عقد الأمصار لابن دقاق (طبع مطبعة بولاق) ١٠٩/٤ وخطط المقريزي (طبعة دار التحرير) ٧/٢ وديوانه طبعته دار الكتب المصرية.

obeikandl.com

وواضح أنه بدأ موشحه بالدور أو الغصن لا بالقفل، وتلا القفل بالدور في ثلاثة أبيات، وكل بيت مكّون من ثلاثة أجزاء، الجزء الثاني مستخرج من آخر الجزء الأول، فصابي مستخرج من التصابي وبالمثال نابي مستخرج من الجناب، وكابي مستخرج من انسكاب. وهو تكلف واضح ولكنهم كانوا يعدونه في الموشحات والأشعار آية براعة فائقة.

المحار[١] الحلبى

هو سراج الدين عمر بن مسعود الحلبي الملقب بالمحار لأنه نشأ يَمْحر الكتان أي يغسله ويبيضه ثم اشتغل بالأدب والشعر ومهر فيهما،ففاق موطنه حلب إلى حماة ورعاه صاحبها الملك المنصور (٥٨٧- ٦١٧ هـ) إلى أن توفى بدمشق سنة ٧١١. وربما كان أروع وشاح أنجبته الشام على مر الأزمنة والحقب، ومن موشحاته المشهورة موشحة عارض بها أيدمر المحيوي في موشحته المذكورة آنفا ويستهلها على هذا النمط:

ما ناحت الورْقُ في الغصونِ إلا هاجتْ على لوعةَ الحزين تغْريدها

هل ما مضى لي مع الحبايبْ آيبْ بعد الصدودْ

أو هل لأيامنا الذواهب واهبْ بأنْ تعودْ

بكل مصقولة التّرائبْ كاعبْ هَيْفاءَ رُودْ

والموشح يموج على هذه الشاكلة بعذوبة الجرس وجمال الإيقاع والنغم رغم محاولة المحار فيه أن يستخرج الجزء الثاني في الدور من آخر كلمة في جزئه الأول، فقد كان من القدوة على حسن التلحين لكلماته بحيث لا يقف دونه أي عائق، بل إن العائق نفسه يصبح إكمالا بديعاً للتلحين والتنغيم على نحو ما يتضح في كلمات " آيب- واهب- كاعب".. ولا يقل عن هذه الموشحة عذوبة ورشاقة وحلاوة في النغم موشحته

---

(١) انظر في المحار فوات الوفيات ٢١٩/٢، ٥٠٦، ٥٠٨، ٥٠٩ و النجوم الزاهرة ٢٢١/٩ والوافي ٢٨٠/٤ وانظر توشيع التوشيح للصفدي إذ توارد مع صاحب الفوات على أربعة من الموشحات وانظر عقود اللآل رقم ٥٢، ٧٦.

التـي عـارض بهـا موشـحة أحمـد بـن الحسـن الموصـلي المـار ذكـره فـي العـراق، افتتحهـا بقوله:

obeikandl.com

مذشِمْتُ سَنا البروق من نعمانِ باتت حَدقي

ُتذْكى بمسيل دمعها الهتّانِ نارَ الحُرَق[١]

ما أومض بارقُ الحِمَى أو خفَقَا

إلا وأجَدّ لي الأسى والحُرَقا

هذا سببُ لمحنتي قد خُلقا

وتصويره لمسيل الدموع المتدفق بأنه يضرم نار الحرق تصوير بديع. وموشحات المحّار على هذا النمط تمتع الأذن والقلب والخيال بصفاء موسيقاها ورقتها وما يُطوىَ فيها من جمال التصاوير.

(د) البديعيات

مرّ بنا أن الشام- منذ أواخر القرن الثاني الهجري- تطورت بصور البديع الحسية التجديدية ممن جناس وطباق وتصاوير إلى إشراك صور جديدة معها من زخرف الفكر ووشيه على نحو ما هو معروف عن أبي تمام، نافذة بذلك إلى إرساء مذهب جديد في فن الشعر سميته في كتاب " الفن ومذاهبه في الشعر العربي" باسم مذهب التصنيع أي التنميق الناشئ عن استخدام محسنات البديع المعروفة وأيضا عن استخدام طرائف فكرية لا تكاد تُحصّى. وتبع البحتري- كما ذكرنا- أستاذه أبا تمام في المذهب ولم تكن له ثقافت الفلسفية لوا بعد غوره في الأفكار. وكان أبو تمام يكثر من الجناس فلم يتابعه البحتري في هذا الإكثار وإن ظل يستخدمه كما يستخدم الطباق والتصاوير من تشبيهات واستعارات. ونجد الجناس بعده على كل لسان فكل شاعر شامي يحاول أن ينفذ فيه إلى أبيات بديعة كقول أبي فراس الحمداني [٢]:

وما السلافُ دهتْني بل سَوَالفُهُ ولا الشّمول دهتْني بل شمائلهُ

ولعل شاعراً شامياً لم يكثر من استخدام الجناس كما أكثر أبو العلاء، وسنراه يدخل عليه ألواناً من التعقيد سنعرض لها عما قليل، وكان يعاصره ابن حيّوس المتوفى

---

(١) تذكى: تضرم.

(٢) الديوان تحقيق د. سامي الدهان (طبع المعهد الفرنسي بدمشق) ٣٠٢/٢.

سنة ٤٧٣ وكان يتابع أبا تمام في الإكثار من المحسنات البديعية جناسا وغير جناس. ونرى العماد الأصبهاني في الخريدة يتوقف مراراً ليثبت على هذا الشاعر أو ذاك كثرة استخدامه للجناس، وسجّل ذلك مراراً على الشعراء الثلاثة الذين افتتح بهم الجزء الأول من شعراء الجزء الأول من شعراء الشام وهم ألغزي وابن منير والقيسراني وفيه يقول:" صاحب التطبيق والتجنيس، وناظم الدر النفيس" [١] وعلى شاكلتهم شعراء الخريدة لا في استخدام الجناس وحده بل في استخدام المحسنات البديعية جميعا، وكذلك من تلاهم من الشعراء الشاميين.

وكانت قد تكونت بمصر منذ أواخر أيام الفاطميين مدرسة حملت لواء المحسنات البديعية وأشاعتها في شعرها ونثرها مضيفة إليها لونا جديدا هو لون التورية الذي يصور مزاج المصريين وميلهم من قديم إلى النكتة، وكان من السابقين إلى حمل هذا اللواء بأخرة من الدولة الفاطمية ابن قادوس وابن قلاقس، وحمله بعدهما القاضي الفاضل وابن سناء الملك وغيرهما. وكانت ديار الشام جميعها توحدت مع مصر لعهد صلاح الدين، وسرعان ما وجدنا ذوق هذه المدرسة المصرية يعم بلدان الشام كما لاحظ ذلك الصفدي ونقله عنه ابن حِجّة الحموى في خزانته إذ ذكر السابقين في المدرسة من شعراء مصر ثم قال: " وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم وتأزر نصرهم " وعدّ منهم سيف الدين المشد المتوفى سنة ٦٥٦ والشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري شيخ شيوخ حماه المتوفى سنة ٦٦٢ وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ ومجبر الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ والشبا الظريف شمس الدين محمد بن العفيف المتوفى سنة ٦٨٨ ومحيي الدين بن قُرْناص الحموى المتوفى سنة ٧١٢ وتمل ابن حجة في خزانته بأشعارهم في محسنات البديع المختلفة وفتح لكل منهم فصلا طريفا في باب التورية، واستطاعوا في أحوال كثيرة أن يجعلوا لتورياتهم نفس خفة الروح التي تلقانا في توريات المصريين مثل قول ابن لؤلؤ [٢]:

يمرُ بي كلّ حين ... وكلما مرّ يحلو

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٩٦/١

(٢) خزانة الأدب للحموي ص ٣٢٨

وهـو لا يريـد " مـر" مـن المـرور وهـو المعنـى المتبـادل لكلمـة يمـر فـي أول البيـت، وإنمـا يريـد مـرّ مـن المـرارة عكـس الحـلاوة، وهـو المعنـى البعيـد، ومثـل قـول مجبـر الـدين بـن تميم [١]:

أياحُسْنَها من روضةٍ ضاعَ نَشْرُها فنادتْ عليه في الرياضِ طيورُ

ولضـاع معنيـان: أولهمـا مـن صـاغ الزهـر يضـوع إذا فاحـت رائحتـه، وثانيهمـا مـن ضـاع الشـيء يضـيع إذا فقـد والأول المـراد. ومثـل قـول الشـاب الظريـف وقـد احتجـب بعض أصحابه عنه [٢]:

ولقد أتيتُ إلى جَنابك قاضياً بالثّم للعتَبات بعضَ الواجبِ

وأتيت أقصد زورةً أحْظى بها فُردِدْتُ- يا عيني- هناك بحاجبِ

وواضـح أنـه لـيس المـراد حاجـب العـين، وإنمـا البـوّاب المشـرف علـى الزيـارة. وتظـل التوريـة شـائعة علـى ألسـنة الشـاميين، ويشـد الحمـوى فـي خزانتـه باسـتخدام الـوداعي علـي بن المظفر المتوفى سنة ٧١٦ لها وإكثاره منها كقوله [٣]:

قال لي العاذلُ المفنِّدُ فيها يومَ وافتْ فسلّمتْ مُخْتاله

قم بنا ندّعى النبوَّةَ في العش ق فقد سلّمتْ علينا الغزالة

وللغزالـة معنيـان: معنـى قريـب وهـو الشـمس ومعنـى بعيـد وهـو صـاحبته الجميلـة التـي تشبه الغزالة وهو المراد.

ويتتبـع ابـن حجـة مـا أخـذه ابـن نباتـه مـن موائـد التوريـة عنـد الـوداعي، وبالمثـل يتتبـع مـا أخـذه الصـفدي مـن ابـن نباتـه مـن توريـاته البديعـة، وكـان الصـفدي يعنـي عنايـة شـديدة باصطناع المحسنات البديعية وخاصة التورية والجناس، وله فيهما كتابان.

ومضـى شـعراء الشـام- بعـد الصـفدي- كشـعراء مصـر يعنـون بتلـك المحسـنات بقيـة زمـن المماليـك، يشـترك فـي ذلـك فـتح الـدين بـن الشـهيد المتـوفى سـنة ٧٩٣ وعلـى بـن أيبـك

---

(١) فوات الوفيات ٥٤٢/٢.

(٢) خزانة الادب الحموى ص ٣٣٤

(٣) الخزانة ص ٣٤٣.

المشقي المتوفى سنة ٨٠١ وابن الأدمي المتوفى سنة ٨١٦ وابن حِجّة الحموي صاحب الخزانة المتوفى سنة ٨٣٧. ويطرد اصطناع المحسنات البديعية في أيام العثمانيين، ومن أهم ألوانها الاقتباس من القرآن الكريم وتضمين شطور أو أبيات في قصيدة الشاعر سابقين، وقد اقتبس الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصاري فواصل "سورة الشمس" في قطعة غزلية له مستهلا لها بقوله[١].

قسمًا بِشَمْس جَبينهِ وضُحاها ونهارِ مَبْسمِه (إذا جَلاّها)

وتوالت قوافيه: (يَغْشَاها- زَكاّها- تَقواها- أشقْاها). ومن طريق الاقتباس في الغزل قول فتح الدين بن الشهيد [٢]:

في صدرها رُمّانُ نَهْدٍ زانُه حَلْى (يُوَسْوِسُ في صدور الناسِ)

ويريد بوسوسة الحلي صوته الخفي، واقتبس- كما هو واضح- آية سورة الناس وما فهيا من الاستعاذة من الشيطان الوسواس بما لا نفع فيه الذي (يوسوس في صدور الناس). وأكثر الشعراء من التضمين لأبيات المتنبي وغير المتنبي من كبار الشعراء، كقول مجبر الدين بن تميم مضمنا لبيت من أبيات المتنبي في وصفه لزهر اللّوز إذ يقول [٣]:

أزهَر اللّوْزِ أنت لكلّ زهرٍ من الأزهار يأتينا إمامُ

" لقد حسنتْ بك الأيام حتى كأنك في فمِ الدهرِ ابتسامُ "

وغُنى كثيرون باقتباس الشطور الثواني من معلقة امرئ القيس وتضمينها في قصائدهم. وسنلتقي بأمثلة كثيرة من ألوان هذه البديعيات في ترجماتنا للشعراء.

(١) ديوان الصحاب شرف الدين الأنصاري (نشر مجمع اللغة العربية بدمشق- تحقيق د. عمر موسى) ص ٥١٥.

(٢) الخزانة ص ٤٠٤.

(٣) الخزانة ص ٤٧٣.

(هـ) التعقيدات

إذا كانت الشام نفذت- على لسان أبي تمام- إلى ابتكار مذهب التصنيع والتنميق في الشعر العربي، فإنها هي أيضا التي نفذت إلى ابتكار مذهب التصنع والتعقيد في العشر أو قل هي التي أعطته صيغته النهائية، فقد أخذ الشعراء- منذ أوائل هذا العصر يتكلفون في صورهم البيانية ومحسناتهم البديعية ألوانا شتى من التكلف عرضناها في كتابنا "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" وما نصل إلى أبي العلاء المعري حتى يبلغ هذا التصنع أقصاه في ديوانه: "لزوم مالا يلزم" وهو في مجلدين ضخمين. والقصائد فيه تنتظم حروف المعجم حرفاً حرفا، وفي كل حرف يأتي بالروي ساكنا ومتحركا بالحركات الثلاث: الضمة والفتحة الكسرة، والتزم مع كل روى حرفا معينا يسبقه كالباء والتاء وغيرهما. وبذلك أصبح لقصائد هذا الديوان الضخم رويّان يلزمانها في حتمية شديدة. وليس هذا كل ما في الديوان من تعقيد، فقد يكون ذلك أخف ما فيه من ألوانه.، إذ تراه يعني فيه بعرض كلمات غريبة لا تكاد تحصى، وشغف بالجناس وعقّده بدوره إذ طلبه بين القافية وما يسبقها من كلمات البيت، بل لعله ظن ذلك لا يزال شيئاً سهلا فطلب أن يكون بين أول كلمة في البيت وبين القافية كقوله [١]:

أشْراك ذَنبك والمهيمنُ غافرُ ما كان من خطأٍ سوى الإشراكِ

ومعنى أشراك: أغراك وأوقعك في الإثم. ويكثر هذا الجناس المعقد في لزوم مالا يلزم أو في اللزوميات، ولا يكتفي أبو العلاء بعُقد الجناس واللفظ الغريب والروي المتعدد بل يطلب عُقدا أخرى من ألفاظ الثقافات وما يتصل بها من اصطلاحات الفلسفة والعلوم الإسلامية وعلوم الأوائل من فلك وغير فلك وعلوم العربية من عروض وغير عروض مثل [٢]:

بقائي الطولُ وغَيِّ البسيطُ وأصحبتُ مضطربا كالرّجَزْ

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (طبع دار المعارف الطبعة العاشرة) ص ٤٠١.

(٢) نفس المصدر ص ٤٠١

والطويل والبسيط والرجز من حبور الشعر وأوزانه كما هو معروف، والرجز أكثرها اضطرابا لكثرة ما يجري فيه من زحافات وعلل.

ولعل في ذلك ما يوضح كيف أرسى أبو العلاء في الشام مذهب التصنع والتعقيد الشديد وكيف رفعه على دعائم متينة لا في قصيدة واحدة أو في قصيدتين، بل في ديوان كبير. وتبعه شعراء الشام لا ينظمون دواوين مثله يلتزمون فيها مالا يلزم من اللوازم التي التزمها جميعا، ولكنهم يستخدمونها في الحين بعد الحين كقول ابن حَيوس متغزلا [١]:

أوصابُ جسمي من جِناية بُعْدكم والصبرُ صبْرُ بعدكم أو صابُ

فقد جانس بين أول كلمة في البيت وبين القافية المكونة من حرف العطف "أو" وكلمة صاب مثل كلمة صبر أي مُرّ. وعلى هذه الشاكلة قول ابن عُنين [٢]:

خبّروها بأنه ما تَصَدّى لسلّو عنها ولو ماتَ صَدّا

والجناس واضح بين آخر الشطر الأول والقافية، وهو فيها مكون من كلمتين. ويكثر ذلك عند شعراء العصر حتى نهايته زمن العثمانيين. ويقول الحموي في خزانته: " كان الشيخ صلاح الدين الصفدى يستسمن ورمه ويظنه شحما فيشبع أفكاره منه ويملأ بطون دفاتره (شعرا ونثرا) ويأتي فيه بتراكيب تخفُ عندها جلاميد الصخور ". ويسوق من هذه الجلاميد أمثلة لعل أخفها قول الصفدي [٣].

وكم شِمتُ لما قِسْتُ مقدار وُدكم بوارقَ يأسٍ في بَوارِ قياسِ

والجناس في الشطر الثاني، وهو مركب من كلمتين يختلفان معنى وبناء كما هو واضح، وفيه غير قليل من الثقل فما بالنا بما وراءه من أمثلة ساقها الحموي للصفدي. ولا نعدم أن نجد بين الشعراء مِنْ يزرى على هذا التصنع الشديد لجناسات كأنها قطع الصخر كما يقول الحموي مما يجعلها تصك الآذان صكا عنيفا، ولعله لذلك حمل زين

---

(١) الديوان ٥٨/١

(٢) الديوان (تحقيق خليل مردم طبع دار صادر) ص ٤٩.

(٣) الخزانة ص ٢٦

الـدين بـن الـوردي معاصـر الصـفدي المتـوفى سـنة ٧٤٩ علـى مـن يجعـل الجنـاس لـه مذهبا في نظمه، يقول ناصحا شعراء عصره [١]:

إذا أحْببتَ نظمَ الشعرِ فاختَرْ لنظمك كلّ سهلٍ ذي امتناعِ

ولا تَقْصدْ مجانسةٌ ومسكن فوافيَه وكِلْهُ إلى الطّباعِ

وقليلـون هـم الـذين اسـتمعوا إلـى نصـحه إذ أصـبح التصـنع منـذ زمـن أبـي العـلاء فـي القـرنين الرابـع والخـامس ظـاهرة عامـة تشـمل جمهـور الشـعراء إلا مـن نـدر، ولهـم فـي ذلـك كثيـر مـن ألافـانين. وينشـد العمـاد الأصـبهاني فـي خريدتـه صـورا كثيـرة مـن هـذه الأفـانين، وخاصـة عنـد ابـن قُسـيم الحمـوي المتـوفى سـنة ٥٤١ وهـو شـاعر نـور الـدين وأبيـه عمـاد الـدين، وبـدأ العمـاد بصـورة معقـدة مـن تصـنعه فـي القـوافي إذ نظـم أبياتـا علـى خمـس قواف، يقول فيها مادحاً [٢]:

قل للأمير أخي النّدى النائلِ الهطّالِ للشعراء والقُصّادِ

لازلت تنتهكُ العِدا بالذابل العّسالِ في الأحشاء والأكبادِ

ووُقيت من صَرْف الردى والنازلِ المغتالِ للأعداء والحسّاد

وواضـح أنـه يمكـن أن تُفصَـل الشـطور الأولـى مـن كـل بيـت وحـدها وأن يضـاف كلـل منهـا الكلمـة التاليـة أو الكلمتـان أو الأربعـة، ومـع كـل صـورة يتكـون بيـت مسـتقل، وهـي مهـارة تصـوير قـدرة علـى التصـنع والتعقيـد. وينشـد العمـادلا بـن قُسَـيْم مقطوعـة طويلـة تتـوالى الكلمـات فيهـا بحيـث لا تخلـو أولاهـا مـن صـاد وثانيتهـا مـن سـين أو العكـس [٣]. ومما أنشده العماد في خريدته من هذه الصور المتكلفة قصيدة لشاعر من شعراء المعرة التزم في كل كلمة من كلماتها أن لا تخلو من حرف النون [٤]، وأنشد لشاعر آخر من شعراء المعرة قطعة تقرأ على سبعة أوزان. ولابن عنين حين ألم في رحلته الكبيرة إلى

(١) الخزانة ص ٢٧

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٤٤٤/١.

(٣) الخريدة (قسم الشام) ٤٤٧/١.

(٤) الخريدة ٤٥/٢.

obeikandl.com

المشرق بالفخر الرازي في " هراة" قصيدتان [١] في مديحه تشتمل كل كلمة في أولاهما على حرف السين كقوله فيها

حِسُنتْ سريرتُه وقُدس سِنْحُه وسما بأسلافٍ سراةٍ شُوسِ [٢]

بينما تشتمل كل كلمة في ثانيتهما على حرف الحاء. وتعلق كثير من الشعراء في العصر بصنع الألغاز والإجابة عنها، وافرد كثيرون لها أبوابا في دواوينهم على نحو ما يلقانا في ديوان ابن عنين وأيضاً في ديوان مامية الرومي الدمشقي في زمن العثمانيين. وظل غير شاعر يتصنع لما لا يلزم في بعض مقطوعاته وقصائده وكان للصاحب عبد العزيز الأنصاري مجلد كبير فيه [٣].

(١) الديوان ص ٩٦، ٩٨

(٢)السنخ: الأصل، شوس جمع أشوس: الشجاع المقدام.

(٣) فوات الوفيات ٥٩٨/١

obeikandl.com

٤

شعراء المديح

يكثر شعراء المديح في الشام منذ القرن الثاني الهجري، وذكرنا أسماء نفر منهم في غير هذا الموضع، وقد أهدت الشام في القرن الثالث إلى الشعر العربي أكبر شاعرين مدّاحين فيه، وهما أبو تمام البحتري. ويتكاثر شعراء المديح كثرة مفرطة في أول هذا العصر: عصر الدول والإمارات بحلب زمن بطلها سيف الدولة الحمداني الذي تحول بها إلى أكبر مركز علمي وفلسفي وأدبي، على نحو ما مرّ بنا، وغدت مقصد الأدباء وحلبة الشعراء، وجاءوها من كل بلد في العراق وإيران فضلاً عن الشام، وفي مقدمتهم المتنبي. ول سيف الدولة نحو عشرين عاما يمزق جموع البيزنطيين ويستولي على كثير من الحصون والبلدان، والشعراء من حوله ينثرون عليه قصائدهم ومدائحهم بالعشرات– إن لم يكن بالمئات– مسجلين للبطل العربي مجده الحربي العظيم، وقد صورنا في قسم العراق من هذا التاريخ للأدب العربي مدائح المتنبي فيه، ولن نستطيع أن نعرض هنا مدائح غيره من شعراء العراق مثل ابن نباتة وأبي الفرج الببغاء، فكتاب اليتيمة للثعالبي يحمل من مدائحهما ومدائح غيرهما لسيف الدولة روائع بديعة. ويكفي أن نشير إلى من حفوا به من شعراء الشام أمثال كشاجم والوأواء الدمشقي وأبي العباس أحمد بن محمد المصّيصيّ المشهور باسم النامي، وكان عند سيف الدولة يتلو أبا الطيب في المنزلة والرتبة، وكان شاعرا بارعاً، ومن قوله فيه بإحدى مدائحه [١]:

أميَر العُلا إن العَوالى كواسبُ	**علاءك في الدُنيا وفي جَنة الخُلدِ**
يمرّ عليك الحقولُ، سيفُك في الطُلا	**وطَرُفك ما بين الشكيمة واللبْد** [٢]
ويمضى عليك الدهرُ، فعلك للعلا	**وقولك للتقْوَى وكفك للرِّفْدِ**

فسيف الدولة دائما محارب يدق أعناق البيزنطيين بسيفه المسلول، ودائما ساهر شاكي السلاح وبصره مصوّب إلى فرسه الذي يعلك باستمرار شكيمته استعداداً للنزال.

---

(١) اليتيمة ٢٢٥/١

(٢) الطلا: جمع طلية أو طُلاة كم مر. وهي العنق أو صفحته، الشكيمة: الحديدة المعترضة في فم الفرس من اللجام.

openkanz.com

ما الإنسان إلا فعل وقول وفعل سيف الدولة دائما للعلا ومنازله الرفيعة وقوله للتقوى ومخافة الله، أما كفه فللعطاء والنوال السابغ.

وكان سيف الدولة- ومثله الحمدانيون عامة- من الشيعة الإمامية، مما جعل كثيرين من أهل حلب يعتنقون هذه النحلة، ومر بنا أن تفرعت عنها فرقة النُصَيْرية الشديدة الغلو لما تزعمه- كما مرّ بنا- من ألوهية علي بن أبي طالب. ومكّن لانتشار التشيع في الشام استيلاء الدولة الفاطمية على فلسطين ودمشق وكثي من بلدان سوريا منذ سنة ٣٥٩ ونرى نفرا من شعراء الشام ينزلون القاهرة معتنقين- على ما يبدو- لتلك النحلة ويتغنون بمديح الخليفة الفاطمي العزيز (٣٦٥- ٣٨٦ هـ) ووزيره يعقوب بن كلّس وفي مقدمتهم أبو الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكي، وله في الخليفة ووزيره غير قصيدة، ومن قوله في ابن كلّس بإحدى قصائده [١]:

لم يَدَعْ للعزيز في سائر الأر ... ض عدوّا إلا وأخمْدَ نارَهْ

كلُ يومٍ له على نُوبِ الدّه ... رِ وكَرِّ الخطوب بالبَذْل غارَهْ

ولأبي العلاء المعري ديون معروف يسمى " سَقْط الزند" أكثره مدائح نظمها على سبيل التمرين لا قصداً لمديح شخص بعينه إلا ما ندر، فهو لم ينظم كثرها طلبا للكسب ونيل العطاء، وإنما على سبيل التدريب اتبعا لشعراء المديح المنتشرين بزمنه في كل مكان، ومن قوله على طريقتهم في المديح بأولى قصائد سقط الزند:

مُكلّفُ خَيْلِهِ قَنْصَ الأعادي ... وجاعلُ غابهِ الأسَل الطِّوالا

تكاد قِسيُة من غير رامٍ ... تُمكن من قلوبهم النبالا

فالخيل لكثرة ما جعلها الممدوح تمارس القتال تقتنص بنفسها الرجال. وإنه لأسد حقا غير أن عرينه ليس غاباً بل رماحًا طوالا تخطف الأرواح خطفا، وإن قسيه لتصيب أعداءه في الصميم دون رام ينزع عنها النبل والسهام، وهي مبالغة مألوفة عند أصحاب المديح لأيامه.

---

(١) اليتيمة ٣١٠/١.

ومرّ بنا أن بنى مدرسا خلفوا الحمدانيين في حلب، وعُنى منهم خاصة محمود بن نصر بجمع الشعراء حوله فاجتمع في حاشيته كثيرون منهم عبد الواحد الحلبي الربعي وابن حَيْوس الدمشقي وابن النحاس الحلبي وابن سنان الخفاجي. وحدث أن قطبان أنطاكية أو بريقها استولى في شعبان سنة ٤٦١ على حصن " أسفونا " ونكل تنكيلا شديدا بأهله، فحاصره محمود بن نصر وفتك بجميع رجال، وكانوا نحو ألفين، وردّ محمود الحصن على أهله، وهنأه ابن سنان الخفاجي بهذا النصر المبين قائلاً في إحدى قصائده [١].

إنْ أظهرتْ لعُلاك أنطاكية — حُزناً فقد ضحكتْ على قُطبْانها

لما أطلّ له لواؤك خافقاً — عُرفتْ وجوهُ الذلّ في صُلبانها

وحين زار حلب نظام الملك وزير ألب أرسلان السلجوقي قدّم له كثيرون من شعرائها مدائحهم، وكان وافر العقل بصيرا بتدبير الملك وسيوساً بعيد النظر، فساس الدولة السلجوقية خير سياسة، وهو مؤسس المدارس أو الجامعات النظامية في العراق وإيران، وله يقول محمد بن أحمد الشطرنجي الحلبي من مدحة طويلة على أبواب حلب [٢].

يا خير من خفقتْ عليه رايةُ — واجلُ معقودٍ عليه لواءُ

لك كلّ يوم مِنة سيّارة — في الخافقين وغارة شعواء

وذكرنا– فيما أسلفنا– أن بني عمار استطاعوا أن يكونوا لهم في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري إمارة بطرابلس، وكانوا يُقربون منهم الشعراء ويجزلون لهم في العطاء، وذكر العماد الأصبهاني في الخريدة نقرا من شعرائهم في مقدمتهم ابن العلاّني المعري، وله من مدحة في عمار بن محمد بن عمار: آخر أمرائهم [٣]:

يحتاطك التوفيقُ لا يألوك في — تسهيلهِ لك كلّ صعبٍ أوعرِ

دامتْ لك النعماء موصولّ بها — توفيقُ منصور اللواء مظفرِ

---

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ١٤/٢ وما بعدها والديوان طبعة بيروت ص ١١٣.

(٢) دمية القصر ١٩٩/١.

(٣) الخريدة (قسم الشام) ٧٨/٢

وسقطت من يده طرابلس في حجر الصليبيين، وكانت لذلك مناحة كبيرة بين المسلمين. وكان ابن العلاني– فيما يبدو– شيعيا، ولعله لذلك رحل إلى القاهرة وقدّم مدائحه إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، وله يقول في إحدى مدائحه [١]:

ليزْدَدْ عُلُواً ملكُ مصرَ فإنها ... بهِ حرمُ اللهِ العزيزِ المحَّرمُ

فمكة مصرُ، والحجيجُ وفودُه ... ويمناه ركنُ البيت، والنيل زمزمُ

ومن كبار الشعراء الذين نشأوا في حجر بني عمار واستظلوا بما أحدثوا في طرابلس من حركة أدبية الشاعر الدمشقي ابن الخياط وسنخصه بترجمة مستقلة.

وأمراء حسن شيرز: بنو مقلد بن مُنقذ على شاكلة بني عمار في طرابلس يتردد مديحهم على ألسنة الشعراء منذ استخلص على بن مقلد " شيزر" من أيدي الروم سنة ٤٧٤ وظلت أسرته تحكمها حتى أتى عليها زلزال شديد سنة ٥٥٢ هدمها من قواعدها وأهلك سكانها. وتغنى الشعراء طويلا باسم محررها في القرن الخامس على بن منقذ وبخلفائه في حكمها، كما نجد عند ابن منير والقيسراني.

ويلقانا في أواخر القرن الخامس والربع الأول من القرن السادس شاعر فلسطيني هو الغزي بن إبراهيم بن يحي المتوفى سنة ٥٢٤ وقد ترك غزة مسقط رأسه مبكرا إلى دمشق يختلف إلى شيوخها، ثم رحل إلى بغداد وظل بالمدرسة النظامية فترة طويلة مدح فيها ورثي كثيرين من علمائها، ثم تركها إلى كّرْمان وشيراز في فارس وهراة في أفغانستان وكلما ألم ببلد مدح أمراءها ووزراءها حتى وفاته فهو شاعر جوال، وله أشعار كثيرة رائعة في المديح، وله في ابن مكرم وزير كّرْمان مدائح بديعة من مثل قوله [٢]:

ما دعوناه من بني الدِّهر إلا ... أهلَ الدِّهرُ نفسه للتهاني

جُمِع الأُسْدُ والكواكب والأبـ ... ـحُر والناسُ منه في إنسان

واستجابتْ له مناقبُ شتى ... لم تجُلْ في خواطر الإمكان

---

(١) الخريدة ٨٢/٢

(٢) الخريدة (قسم الشام) ١٥١

obeikandi.com

ويتتبه البطل المغوار أتابك الموصل عماد الدين زنكي منذ أوائل العقد الثالث من القرن السادس الهجري إلى أن تخاذل المسلمين أمام حملة الصليب مرجعة إلى تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لهم وأنه لابد من جمع كلمتها تحت لواء واحد. ويستولي على حلب وبعض بلدان سوريا الشمالية. وما توافى سنة ٥٣٤ للهجرة حتى يسوق إلى الصليبيين جيشا جرارا بقيادته، وينازلهم بالقرب من حماة ويعصف بجموعهم، ويستولي على حِصْن بارين بين حماة وحلب. وكأنما استيقظ الشعر حينئذ من سُباته الطويل. ويتبارى الشعراء في مديحه والإشادة بانتصاره، وفي مقدمتهم ابن منير والقيسراني. ولم يلبث في سنة ٥٣٩ أن فتح مدينة الرُّها مزيلا منها جوسلين ودولته الصليبية إلى غير رجعة، وهلل الشعراء في كل مكان لهذا الفتح المبين، وفيه يقول ابن منير [١]

فتحُ أعادَ على الإسلام بهجَتهُ ... فافترَّ مَبْسمُة واهتزّ عِطْفاهُ

أين الخلائفُ عن فتحٍ أتيح له ... مظلّ أفُقَ الدنيا جَناحاه

ومضى ابن منير في القصيدة يُعلى- بحق- هذا الفتح على فتح المعتصم لعمّورية أكبر مدن آسيا الصغرى في زمنه، فقد قضى زنكي على المملكة الرابعة لحملة الصليب، وكانوا قد أسسوها شمالي العراق. وبدا حينئذ- في الأفق- أمل كبير في أن ممالكهم التي أسسوها في أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس لابد أن تسقط في أيدي المسلمين مهما طال الزمن.

وامتدت إلى عماد الدينة سنة ٥٤١ يد آثمة في الظلام ففتكت بالبطل الباسل، وحمل الراية بعده ابنه نور الدين ومضى يجاهد الصليبيين، وغّرت الأمني جوسلين فعاد إلى الرّها، واستردها سريعا نور الدين وفرّ جوسلين، وهنأه الشعراء بهذا الفتح المبين، وفي مقمتهم ابن قُسيم الحموي يمثل قوله [٢]:

تبدو الشجاعة من طلاقِة وجهه ... كالرمح دلّ على القساوة لِينهُ

والدينُ يشهد إنه لمعزُهُ ... والشركُ يعلم إنه لمهينهُ

---

(١) الروضتين لأبي شامة ١*٣٩ وانظر مفرج الكروب لابن واصل تحقيق الدكتور الشيال ٩٣/١.

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٤٧٤/١ وما بعدها.

فتحَ الرُها بالأمس فانفحتْ له أبوباُ ملكٍ لا يُذالُ مَصُونة [١]

وولى نور الدين وجهه نحو سوريا فاستولى من حملة الصليب على حصن أرتاح سنة ٥٤٤. ونازل صاحب أنطاكية وجموعه، وخرّ صريعا بيد أسد الدين شيركوه وفرت جمع الصليبيين مهزومة مدحورة. وعاد نور الدين إلى حلب، والشعراء يهللون بمثل قول ابن منير في مطلع قصيدة له [٢].

أقوى الضلالُ وأقفرْت عَرصاتُه وعلا الهدى وتبلّجتْ قَسماتُه

وظلت أيام نور الدين محمود أعياد نصر على حملة الصليب، وظل الشعراء يدبجون فيه مدائح رائعة، وقد استولى من الصليبيين على أفامية سنة ٥٤٥ واستولى من بيت طغتكين على مدينة دمشق سنة ٥٤٩ ويهنئه عالمها وحفاظها ابن عساكر قائلاً [٣]

لقد بلغتَ بحمد الله منزلةً عَليةُ فاقصُد العالي من القُرب

وطَهّرِ المسجدَ الأقصى وحوْزته من النجاساتِ والإشراك والصُلُبِ

وفي نفس السنة يهزم الصليبيين بدُلوك من ثغور حلب، ويتنازل له حملة الصليب في أنطاكية عن نصف أعمال حرام. واستولى على شيزر وبعلبك وصرخد، وشُغل بإرسال نور الدين شيركوه وأبن أخيه صلاح الدين إلى مصر سنة ٥٥٨ وتطورت الظروف وتملك صلاح الدين مصر، ونور الدين محمود يُعد بحق منشئ الدولة الأيوبية. ولم يلبث في سنة ٥٥٩ أن استولى على مدينة حارم، وأخذت حصون كثيرة تتساقط في يده.، ويتغنى بانتصاراته الرائعة العماد الأصبهاني قائلاً في مطالع إحدى قصائده [٤].

يا واحدا في النصْرِ غيرَ مشارَكٍ أقسمتُ مالك في البسيطة ثانِ

كم وقعةٍ لك في الفَرَنْج حديثها قد سار في الآفاق والبلدانِ

---

(١) يذال: يهان

(٢) الروضتين ٥٨/١ ومفرج الكروب ١٢٢/١ أقوى: أفقر. عرصاته: ساحاته، تبلجت: أضاءت.

(٣) الخريدة (قسم الشام) ٢٧٧/١

(٤) الخريدة (بداية قسم الشام) ص ٥٤.

obeikandl.com

وجعلتَ في أعناقهم أغلالهم وسَحَبتهم هونا على الأذقانِ

ويحمل الراية بعد نور الدين في منازلة حملة الصليب البطل المظفر صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية، وفتوحه العظيمة مصورة في الجزء الخاص بمصر، وما وافت سنة ٥٨٣ حتى تمت له هذه الفتوح بعد وقعة حطين المباركة التي استولى بعدها على بيت المقدس أهم مملكة كانت لحملة الصليب كما استولى على كثير من الحصون على الساحل الشامي، ولم يبق في الشام ولا في الموصل والعراق شاعر إلا وتغنى بفتوح هذا البطل الباسل، تغنى بها سبط بن التعاويذي البغدادي وموفق الدين الإربليّ والشاتالي الموصلي وابن الساعاتي الدمشقي وله مدائح كثيرة متناثرة في كتاب الخريدة، وللعماد في هذه الفتوح قصيدة رائعة أنشدنا منه قطعة في الجزء الخاص بمصر، ولابن الشحنة الموصلي فيه مدحة طارت شهرتها لقوله فيها هذين البيتين السائرين [١]:

وإني امرؤ أحببتكم لمكارمٍ سمعتُ بها والأذنُ كالعين تعشقُ

وقالتٍْ لي الآمالُ إن كنت لاحقا بأبناء أيوبٍ فأنت الموفقُ

ودار الزمن ودانت مصر والشام- بعد صلاح الدين- لأخيه العادل، ولابن عُنين الدمشقي فيه وفي ولديه المعظم عيسى والأشرف موسى مدائح مختلفة. وبينها رائية بديعة في العادل يستعطفه بها في العودة إلى دمشق وكان صلاح الدين نفاه منها لكثرة أهاجيه في أهلها، وأذن له العادل في العودة، وفيها يقول [٢]:

العادلُ الملك الذي أسماؤه في كل ناحيةٍ تشرّف مِنبرا

نسختْ خلائقه الكرمية ما أتي في الكتب عن كسرى الملوك وقيْصرا

مَلِكُ إذا خفتْ حلومُ ذوى النهى في الرّوع زاد رزانة وتوقرا.

ومعرف أن آل أيوب توزعوا فيما بينهم بلدان الشام، وكان لكل منهم شاعره الذي يتغنى بمناقبه وأعماله، ونذكر من بينهم نور الدين مودود شِحنة دمشق ابن أخي صلاح الدين لأمه، وهو ممدوح فتيان الشاغوري دّبج فيه مدائح كثيرة. وحري بنا أن

---

(١) النجوم الزاهرة ٥٨/٦

(٢) ديوان ابن عنين (تحقيق خليل مردم- طبع دار صادر) ص ٦.

نذكر ملوك حماة الأيوبيين، وكانوا ممدّحين. وممن أسبغ عليهم مدائحه الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى، وله في صاحبها المظفر محمود (٦٢٦- ٦٤٢ هـ) وابنه المنصور سيف الدين محمد (٦٤٢- ٦٨٣ هـ) مدائح كثيرة، وكان للثاني موقف محمود حين أحس بان التتار سيغزون الشام إذ التجأ بأسرته إلى مصر حتى إذا التحم القتال بين المصريين والتتار في عين جالوت كان في مقدمة المحاربين البسلاء، ونوّه الصاحب الأنصاري بهذا الموقف الشجاع طويلاً بمثل قوله [١]:

بَعيْن جالوتَ خُضْتَ بَحْر وَغيّ ... يُخال فُلكا بالأسْد مَشحونا

وكنت للجيش غُزة شَدخَتْ ... أنوفهم فانثنوا مُوَلينا

وطوال أيام المماليك كان يرتفع صوت الشعر للتنويه بأعمالهم. وكان لانتصاراتهم على التتار أو المغول بعد موقعة عين جالوت حظ كبير من الشعر، ومرّ بنا في قسم مصر أن الظاهر بيبرس كان دائما يتعقبهم في الموصل وعلى شواطئ الفرات وسمع بحشود لهم على شاطئه الشرقي فخصا إليها لُججة وخاضها جيشه معه ومزقهم شر مُمزق، وفي هذه الغزوة يقول الموفق عبد الله الأنصاري الدمشقي [٢].

الملكُ الظاهر سلطانُنا ... نَفْدِيه بالأموال والأهلِ

اقتحمَ الماءَ ليُطفي به ... حرارةَ القلب من المُغل

ولم يستول الظاهر بيبرس ولا قلاوون ولا الأشرف خليل على حصن أو بلد من حملة الصليب إلا وجلجل الشعر، حتى إذا أنهى الأشرف خليل الحروب الصليبية باستيلائه على عكا آخر حصونهم أخذ شعر المديح في الشام يتحول إلى شعر مناسبات لمديح الحكام حين يستولون على أزمة الأمور أو حين تمر بهم بعض الأعياد أو بعض الأحداث.

ويظل الشعراء أيام العثمانيين يقدمون مدائحهم للحكام، وكان شعراء الشام حينئذ قريبين من إستامبول وكانوا لا يزالون غادين عليها رائحين، مما جعلهم يكثرون من مديح سلاطينهم، على نحو ما يلقانا في ديوان مامية الرومي المتوفى سنة ٩٨٧

---

(١) الديوان (بتحقيق عمر موسى- نشر مجمع اللغة العربية بدمشق) ص ٤٧٥

(٢) النجوم الزاهرة ١٦٠/٧.

ومديحه فيه للسلاطين سليمان ومراد الثاني. ويكثر حينئذ مدح العلماء وأعيان البلدان فضال عن حكامها، وأخذ الشعراء يكثرون مثل المصريين من التاريخ بالشعر يؤرخون قدوم حاكم أو مناسبة من المناسبات يجعلون ذلك في آخر شطر بالمدحة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحساب الجُمل، فيكون المجموع سنة الولاية للحاكم أو سنة المناسبة. وجدير بنا أن نعرض نفراً من شعراء المديح النابهين.

obeikandl.com

ابن الخياط[١]

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبي نسبة إلى قبيلة تغلب المولود بدمشق سنة ٤٥٠ لخياط اشتهر بنسبته إليه، فهو من أبناء عامة الشعب الدمشقي. ودائماً يلقانا في كل البلدان العربية شعراء من أولاد العامة، لأن الثقافة العربية الإسلامية كانت مناهلها مفتوحة الأبواب دائما، إذ كان الشيوخ في المساجد يعرضونها على الناس جميعا شبانا وشيبا، وكانت المساجد أو الجوامع الكبرى تشتمل على مكتبات غاصة بالكتب في كل علم وكل فن وكذلك بدواوين الشعراء، مما أتاح للشباب في كل بلد عربي أن يتزود بما شاء من الثقافة علمية وأدبية وان ينبغ بينهم علماء وأدباء وشعراء لا حصر لهم.

وشهد ابن الخياط في صباه دمشق ثائرة على حكم بدر الجمالي، حتى لقد اشعل أهلها النار في قصره سنة ٤٦٠ وسرت النار إلى الجامع فسقطت سقوفه وتناثرت فصوصه المذهبة، ونُهبت الدور والدكاكين، وظل هذا الاضطراب سائدا في دمشق وأخذ السلاجقة يحاصرونها ابتغاء الاستيلاء عليها حتى تم لهم ذلك سنة ٤٦٨ وتملكه تُتش أخو السلطان ألب أرسلان.

ومعنى ذلك أن الحياة كان سيئة سواءً شديداً بدمشق منذ سنة ٤٦٠ حتى نزلها تتش مما جعل كثير من أهلها يهاجرون منها إلى بلدان الشام الأخرى. وكان ممن هاجر منها في هذه الأثناء ابن الخياط وكان لا يزال في بواكير شبابه، وولّى وجهه نحو حماة، ووفد على أمير بها يسمى محمد بن مالك فقربه منه واتخذه كاتبا له، فعُرف باسم ابن الخياط الكاتب، وفيه يقول:

حَباني جودُهُ عَيشاً كأني ظفرت به من الدّهْر استراقا

وكان شاعر بلدته ابن حيوس حين اضطربت الأحوال في دمشق سنة ٤٦٤ تركها إلى حلب وعاش بها في كنف بني مدراس، فرأى أن يتبعه هناك، ولقيه ابن حيوس لقاء حسنا ومنحه ثيابا ودنانير مع تنويهيه بشعره، وأوصاه أن يفد على بني عمار أصحاب

---

(١) انظرفي ترمة ابن الخياط وشعره تهذيب تاريخ أبن عساكر ٦٧/٢ وذيل تاريخ دمشق لابن لاقلانسي ٢٣٤ و الخريدة (قسم الشام) ص ١٤٢ والعبر ٣٩/٤ وابن خلكان ١٤٥/١ والشذرات ٥٤/٤ ومقدمة ديونه بتحقيق خليل مردم (طبع المجمع العلمي العربي بدمشق)

طـرابلس لرعـايتهم الشـعر والشـعراء، إذ سـيجد عنـدهم مبتغـاه. غيـر أنـه عـاد إلـى حمـاة، وكـان كلمـا ألـم بهـا أميـر مـن أمـراء بلـدان الشـام مدحـه علـى نحـو مـا يلاحـظ مـن مدحـه للأمير الحلبي وثاب بن محمود بن صالح وله يقول:

لقد لبستْ بك الدُنيا جمالاً فلو كانت يداً كنت السّوارا

ويبـدو أنـه مـرّ بحمـاة علـى بـن مقلّـد بـن منقـذ بعـد اسـتيلائه علـى حصـن سـيزر، فاتصـل بـه الشـاعر ومدحـه ومـدح معـه أسـرته ومـا اشـتهروا بـه مـن بسـالة ومـا أتـاحوا لحصنهم الأشم من مناعة، وفي ذلك يقول:

هُمُ غادروا بالعزِّ حَصْباءَ أرضهم أعزَّ منالا من نجومِ الغَياهبِ

ونـرى ابـن الخيـاط فـي سـنة ٤٧٦ يأخـذ بنصـيحة مواطنـه الشـاعر الكبيـر ابـن حيّـوس، فينـزل طـرابلس قاصـدا بنـي عمـار ويسـتقبلونه اسـتقبالا حـافلا، وكـان يحكمهـا حينئـذ مـنهم جـلال الملـك أبـو الحسـن علـى بـن محمـد بـن عمـار (٤٦٤- ٤٩٤ هـ) ولـه فيـه مـدائح رائعة، وربما كانت أولاها داليته، وفيها نحسّ فرحته بلقائه من مثل قوله:

كفى بِنَدَى جلال المُلك غيثاً إذا نزحتْ قَرارةُ كل وادِ

فمن ذا مُبْلغ الأملاكِ عنا وسُوّاسِ الحواضر والبوادي

بأنا قد سكنّا ظلّ مَلْكٍ مَخُوفِ البأسِ مرجوَّ الأيادي

فما نحشى محاربة الليالي ولا نرجو مسالمة الأعادي

وهنـئ بمقامـه فـي ظـل بنـي عمـار بطـرابلس، وصـحب فيهـا طائفـة مـن الأدبـاء كـانوا يخرجـون للمتنزهـات وينعمـون بمشـاهدها الطبيعيـة البديعـة. ومـن حـين إلـى آخـر كـان يمـدح جـلال الملـك فـي المناسـبات كمـرور الأعيـاد. ولـه فـي أخيـه فخـر الملـك قصـائد لا تقـل روعة عن قصائده فيه، ومن قوله في إحداها:

أأرتجي غيرَ عمّارٍ لنائبهِ إذنْ فال آمَنتْني كفّهُ النوبا

المانعُ الجارَ لو شاء الزمانُ له مَنعا لضاق به ذَرعاً وإنْ رَحُبا

الباذلُ المالَ مسئولاً ومبتدئاً والصّائنُ المجدَ موروثاً ومكتسبا

وظل في طرابلس حتى سنة ٤٨٦ وفيها احترقت داره واحترق كل ما كان بها من أثاث، فحزن حزناً شديداً.

وعَبث بابن الخياط الحنينُ إلى دمشق مسقط رأسه وموطن خلاّنه بها أيام الشباب، فعاد إليها وكان ملكها حينئذ تتش السلجوقي وقربه منه وزيره هبه الله بن بديع الأصبهاني، واصطحبه معه إلى " الريّ" بفارس وهناك أنشده مدحه فيه، ورحل إلى خراسان، ولم يلبث أن عاد إلى دمشق سنة ٤٨٧ وامتدح أمير قبيلة بني كلب حسان بن مسمار بقصيدتين، وفتح له أمير الجيش عضب الدولة آبق أبوابه فمدحه بقصيدة بائية ربما كانت أرع قصائده، وتوالت مدائحه فيه حتى توفى سنة ٥٠٢ ومن قوله في البائية:

وما آبقُ إلا حَيا مُتَهّلُ ... إذا جادَ لم تُقلع مواطرُ سُحْبهِ

أغُر غياثُ للأنام وعصمة ... يُعاش بنُعماه ويُحمىَ بِذَبِه

ولم يُرَ يوما راجياً غيرَ سَيفهِ ... ولم يُرَ يوما خائفاً غيرَ ربِّه

حُبِيتَ حياءً في سماحِ كأنه ... ربيعُ يَزين النّوْرُ ناضرَ عُشْبه

والقصيدة رائعة حقاً، نوه بها القدماء طويلا كما نوهوا بغزلها وسننشد منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل.

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٢ وأخذوا بعد ذلك عدة بلدان على الساحل الشامي في السنوات التالية وكثرت الشكايات منهم، وواقعهم طُغتكين صاحب دمشق على سواد طبريّة سنة ٤٩٩ وفي السنة التالية حاصر بلدوين صاحب القدس صَيْداء، وفي ديوان ابن الخياط قصيدة يحض فيها عصب الدولة أمير الجيش في دمشق على منازلة الصليبيين، وفيها يقول مستنفراً الدمشقيين للجهاد:

لقد جاشَ من أرْض إفْرنجَةٍ ... جيوشُ كمثل جبالِ تَرَدّى

أنوماً على مثل هَدّ الصَّفَاةِ ... وهزلا وقد أصبح الأمر جداً

وكم من فتاةِ بهم أصبحتْ ... ثَدُق من الخوف نَحْراً وخَداً

فحاموا على دينكم والحَريمِ ... محاماةَ مَنْ لا يرى الموتَ فقدا

فقد أَيْنعتْ أروسُ المشركين فلا تُغفوها قِطافا وحَصدا

ولـه وراء هـذه القصـيدة مرثيـة لبطـل استشـهد فـي حـرب حملـة الصـليب سننشـد منهـا قطعـة فـي الحـديث عـن شـعراء الرثـاء والشـكوى أنشـدها كالقصـيدة السـالفة عضـب الدولـة المتـوفى- كمـا مـرّ بنـا سـنة ٥٠٢. ولا نجـد لـه وراء هـاتين القصـيدتين شـعراً حماسـياً ضـد حملـة الصـليب مـع أنـه عـاش حتـى سـنة ٥١٧ ممـا يجعلنـا نظـن ظنـا أن شـعراء الشـام فـي الربـع الأول مـن القـرن السـادس علـى الأقـل قَصّـرُوا فـي اسـتثارة الأمـة ضـد حملـة الصـليب حينئـذ. ولـه فـي هـذه الفتـرة التـي عاشـها بعـد عضـب الدولـة مـدائح فـي بعـض الرؤسـاء والـوزراء ورجـال الشـرطة الدمشـقيين وغيـرهم مـن الأعيـان والقـواد، وآخـر قصـيدة لـه نظمهـا فـي مرضـه الأخيـر يسـترفد ابـن القلانسـيي المـؤرخ، وفيهـا يثنـى علـى أدبـه وكتابتـه بمثـل قوله

لـه فِقَرُ لو تجسّدْنَ لميُفَضَّلْن إلا بهنّ العُقودُ

فَيُظلَمْنَ إن قيل نَوْرُ نَضِيرُ ويُبْخَسْنَ إن قيل دُرّ نَضِيدُ

ويبـدو مـن شـعره انـه كانـت لـه مجـالس مـع بعـض الأدبـاء يتنـادمون فيهـا علـى الشـراب ويسترسـلون فـي اللهـو والطـرب بسـماع بعـض المغنـين، كمـا كانـت لـه نُـزَهُ كثيـرة فـي الغوطـة وبسـاتينها، ويبـدو أنـه كـان يولـع بلعـب النّـرد مـع بضـع رفاقـه، ولـه فيـه قصـيدة بديعـة بديوانـه، رواهـا العمـاد الأصـبهاني فـي خريدتـه. وواضـح أن شـاعرية ابـن الخيـاط كانـت شـاعرية خصـبة كمـا يتضـح مـن طـول قصـائده ومـن لغتهـا الجزلـة الناصـعة دون تكلـف للغرابـة أو مـا يشـبه الغرابـه، ومـع جمـال الموسـيقى والجـرس الصـوتي وأنغامـه، ومـع تصاويره المبتكرة الفذة.

obeikandl.com

ابن[١] القَيْسَراني

هو أبو عبد الله محمد بن نصر، من سلالة خالد بن الوليد البطل العظيم، ولد بعكا سنة ٤٧٨وانتقل به أبوه وهو في صباه إلى قَيْسارِيَة [٢]، فنسب إليها وقيل ابن القيسراني إذ نشأ بها، ويبدو أنه هاجر منها مبكرا بعد استيلاء حَملة الصليب عليها سنة ٤٩٤ وأبعد في هجرته إلى الشمال إذ نزل حلب، وأقام فيها طويلاً ربما نحو عقدين من السنين، ثم نزل دمشق. والقدماء مختلفون منهم من يقول إنه نزل حلب أولاً ثم نزل دمشق، ومنهم من يقول بل نزل دمشق ثم نزل حلب، ودفعنا إلى ترجيح الرأى الأول أننا سنجده عما قليل أهم شاعر شامي عُنى بتصوير البطولة العربية في الفتك بحملة الصليب منذ سنة ٥٢٣ للهجرة وقد تجاوز الأربعين من عمره. وكانت دمشق كثرا ما تشتبك مع الصليبيين في حروب وتردهم على أعقابهم خاسرين كما حدث في عهد حاكمها طغتكين سنة ٥٠٢ ويعود طغتكين مع مودود صاحب الموصل إلى كسرهم على طبرّية سنة ٥٠٧ واستطاع أن يهزمهم في البقاع سنة ٥١٠ وهزم صاحب أنطاكية سنة ٥١٣.

وكل هذه الأحداث والانتصارات العظيمة لطغتكين لا نجد لها أي ذكر أو صدى في شعر ابن القيسراني مما يدل على أنه كان غائبا عن دمشق طوال هذه المدة. على كل حال يدل غياب هذه الأحداث السالفة على أنه لم يكن بدمشق في أثنائها وأنه نزل حلب أولا وأقام بها حتى نهاية العقد الثاني من القرن السادس، ثم نزل دمشق بعد ذلك. ويدل دلالة قاطعة على أنه كان بها في عهد بوري بن طغتكين (٥٢٢- ٥٢٦ هـ) أننا نجده ينشده أولى قصائده في الحروب الصليبية حين هزم حَملة الصليب على أبواب مدينته في أواخر سنة ٥٢٣ وفيها يقول:

---

(١) انظر في ترجمة ابن القيسراني وشعره الخريدة (قسم الشام) ٩٦/١ وابن القلانسي: ٣٢٢ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (طبع حيدر آباد) ٢١٣/٨ ومعجم الأدباء ٦٤/١٩ وعبر المذهبي ١٣٣/٥ وابن خلكان ٤٥٨/٤ و النجوم الزاهرة ٢١٣/٥ والروضتين ٥١/١ في حروب عماد الدين الزنكي وابنه نور الدين محمود والشذرات ١٥٠/٤ وصدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني للدكتور محمود إبراهيم وتوجد مخطوطة من ديوانه- وهي مختارات منه- بدار الكتب المصرية.

(٢) كانت ثغرا كبيراً من ثغور فلسطين.

وافوا دمشقَ فظنوا أنها جِدَةُ ... ففارقوها وفي أيديهم العدمُ

وغادروا أكثر القُرْبان وانجفلوا ... وخلّفوا أكبر الصُلْبان وانهزموا [١]

وكان– كما قال مترجوه– يتولى في أثناء مقامه بدمشق إدارة الساعات بها إلى أن تولى شمس الملوك بن بوري (٥٢٦– ٥٢٩ هـ) حُكمها، فاصطدم به ابن القيسراني، مما جعله يهجوه، وعلم بهجائه فضاقت عليه الأرض بما رُحبت، وفر منه بعيداً إلى العراق. وترك العراق سريعا إلى لحب حين سمع بانتصارات عماد الدين زنكي على حملة الصليب واستيلاءه منهم على المعرة وبَعرْين، وتتأكد صلته به منذ سنة ٥٣٤ إذ نجده يشيد بانتصاره على جمع الصليبيين واستيلائه منهم على حصن بارين غربي حلب في الطريق إلى حماة، ويشعر في عمق العرب وعماد الدين قائلاً:

حَذارِ منا وأني ينفع الحَذرُ ... وَهْيَ الصوارم لا تُبْقي ولا تَذَرُ

وأين ينجو ملوك الشرْك من ملكٍ ... مَنْ خَيْله النصرُ بل من جُنده القدَرُ

ثم يكون نصر عماد الدين العظيم باستيلائه على الرُها من يد جوسلين ومحو عار هذه المملكة أو الدولة التي أقامها الصليبيون شمالي العراق آملين في الانحدار منها إلى الجنوب، وإذا عماد الدين يستولي عليها بجيوشه وبطولته الخارقة سنة ٥٣٩ وتكون لذلك رنة فرح عظيم في نفس ابن القيسراني ونفوس المسلمين وينشد:

سمتْ قِبْلة الإسلام فخرا بِطَوْلِهِ ... ولم يَكُ يسمو الدين لولا عمادُهُ [٢]

مصيُ سهامِ لو أن عَزْمه ... رمى سدَّ ذي القَرْنين أصْمَى سِدادَهُ [٣]

فقُلْ لملوك الكفر تُسلِمْ بعدها ... ممالكَها إن البلادَ بلادهُ

ونرى ابن القيسراني– بعد هذا الفتح المبين– بنحو عام يزور أنطاكية، ويقول العماد إنه زارها لحاجة عرضت له، ولا ندرى هل كانت حاجة سياسية لأمير أو كانت حاجة شخصية، ويغلب على ظننا أنها كانت حاجة سياسية، والمهم أنه شبب بإفْرنجيات وبراهبات وتمادى في هذا التشبيب، وسنذكر طرفا منه في حديثنا عن شعراء

---

(١) انجفلوا: تشردوا.

(٢) بطوله: بفضله.

(٣) أصمى: اصاب.

الغزل،. وعاد من رحلته إلى عماد الدين ووزيره جمال الدين بن أبي منصور، وله فيه مدائح بديعة.

وتطورت الأمور سريعاً فقُتل عماد الدين بيد آثمة، كما أسلفنا وحمل لواء الجهاد بعده الملك العادل نور الدين، وتغرجوسلين الأماني ووقوف الأرمن معه، فيعود إلى الرها، ويخرجها منه نور الدين منكلاً بالأرمن، ويهنئ ابن القيسراني الوزير ابن ابي منصور بهذا الانتصار قائلاً:

ليَهْنك ما أفرجَ النصرُ عنه وما ناله الملكُ العادلُ

وإنْ يك فَتْحُ الرُهَا لُجّةً فساحُلها القُدْسُ والساحل

وحقا عظم الأمل في نور الدين أن يسترد للمسلمين القدس والمسجد الأقصى بل الساحل الشامي جميعه. ويحشد حملة الصليب في سنة ٥٤٣ جيشا كثيفا لهم في بقعة تسمى "يَغْري" ويسحق نور الدين محمود الجيش سحقاً ذريعا، وينشد ابن القيسراني:

مظفر في دِرْعه ضَيغَمُ عليه تاج الملك معقودُ

وصارمُ الإسلام لا يْنثنَى إلا وشلوا الكفر مَقْودْ (١)

ويدور العام ويحشد صاحب أنطاكية وحملة الصليب حشودهم عند حصن " نب" ولقيهم نور الدين فمحقهم محقا. وقُتل في المعركة صاحب أنطاكية البرنس العاتي، ولم يفت من القتل إلا من خبر أهل أنطاكية من قومه بالاندحار والدمار. وجلجل ابن القيسراني بصوته منشدا نور الدين على جسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية قصيدة رائعة استهلها بقوله:

هذى العزائم لا ما تدّعى القُضبُ وذي المكارمُ لا ما قالت الكتب (٢)

أغرتْ سيوفك بالإفرنج راجفةُ فؤادُ روميّة الكبرى لها يَجِبُ (٣)

غضبتَ للدين حتى لم يَفُتْك رضا وكان دين الهدى مرضاتهُ الغَضَبُ

---

(١) الشلو: العضو وبقية الشئ. مقدود: مشقوق

(٢) القضب جمع قضيب: السيف القاطع

(٣) راجفة: نفخة مميتة: يجب: يخفق

من كان يغزو بلادَ الشرْك مكتسبا من الملوك فنورُ الدين مُحْتَسبُ [١]

فانهَضْ إلى المسجد الأقصى بذى لَجَبٍ يوليك أقصى المنى فالقدسُ مرتَقبُ [٢]

ولابن القيسراني مدائح أخرى لنور الدين يردد فيها مجده وانتصاره الحربيين ضد حملة الصليب وما يأمله على يديه من رد بيت المقدس والساحل الشامي على أصحابها المسلمين. ودائماً يحوطه بهالة إسلامية هو جدير بها، فقد كان يحارب في سبيل الله لا يبتغي مغنما، إنما يبتغي ما عند الله من الأجر والثواب، حتى ليقول له ابن القيسراني في نفس هذه القصيدة السالفة.

إلا تكنْ أحدَ الأبدْال في فَلكِ الـ تّقوى فلا نَتَمارى أنك القُطُبُ

وكأنه يعده قطب تقوى وإنقاذ للشام وأهل الشام. ولم يعش ابن القيسراني حتى يمجد بقية انتصاراته المجيدة على الصليبيين، إذ توفى قبله بنحو عشرين عاما سنة ٥٤٨. وله مدائح في بني منقذ وفي مجير الدين آبق صاحب دمشق. ويقول العماد إنه كان له معرفة بالمنطق وعلوم الأوائل وإنه كان يتصنع للجناس أحياناً غير أن ذلك قليل في شعره، فقد كان يطلب فيه النصاعة والسلاسة على غرار أستاذه ابن الخياط فهو تلميذه وخريجه وراوي ديوانه.

ابن[٣] الساعاتي

هو بهاء الدين علي بن محمد بن رستم الدمشقي خراساني الأصل، ولد لأبيه بدمشق سنة ٥٥٣ وكان ماهرا في صنع الساعات الفلكية، وأنعم عليه نور الدين محمود إنعاما وافرا حين صنع الساعات التي وُضعت على باب الجامع الأموي، وأتاح له ذلك ثراء، نعم به ابنه علي إذ شُغف بالفروسية وببعض ضروب اللهو مثل النرد والشطرنج. ومثل لذاته حفظ القرآن صبياً واختلف إلى دروس العلماء والمؤدبين في الجامع الأموي،

---

(١) محتسب: يحتسب أجره على الله

(٢) ذولجب: الجيش. اللجب: الصياح والجلبة.

(٣) انظر في ابن الساعاتي وشعره وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٩٥/٣ وعبر الذهبي ١١/٥ وم رآة الزمان: ٣٧٥ ولغصون اليانعة لابن سعيد ص ١١٨ وشذرات الذهب ١٣/٥ وابن أبي أصيبعة ص ٦٦١ ومقدمة ديوانه بتحقيق أنيس المقدسي (طبع المطبعة الأمريكانية– بيروت)

ويبدو أن ابن سعيد خلط بينه وبين أخيه فخر الدين إذ قال إنه حين شبّ أرسل به أبوه إلى البديع الأسطُرْلابي بآمد ليتقن صناعة الآلات الفلكية، وكأنه لم يلاحظ أن البديع توفى قبل ميلاده بنحو عشرين عاما. وربما أرسله إلى أحد أولاده. ونراه بعد فتح صلاح الدين لآمد يمثل بين يديه مادحا له بقصيدة لامية سنة ٥٧٩ يقول له فيها:

لولا مساعى صلاح الدين ما صلحتْ ... شمُ الممالك بعد الزّيْغ والميَل

فليعلمِ القدسُ أن الفتحَ منتظرُ ... حلوله وعلى الآفاق فَلْيَطُل (١)

وتحققت سريعا نبوءته بفتح القدس، ونراه بين من حفّوا بصلاح الدين في موقعته الماحقة، موقعة حطين على حافة بطرية، وله يهنئه بهذا النصر العظيم وما أنزل بحملة الصليب من ضربه قاصمة لم يفيقوا بعدها أبداً، إذ كُبت الكثرة منهم على وجوهها، ووقع ملوكهم وصناديدهم في أسر البطل العربي، وله يقول

جَلَتْ عزماتُك الفَتْحَ المبينا ... وقد قَرَتْ عيونُ المؤمنينا

قضيتَ فريضةَ الإسلام منه ... وصدقْتَ الأماني والظنونا

فألممَ بالسواحل فَهْي صور ... إليك وألحق الهامَ المُتونا (٢)

وقلب القُدْس مسرور ولولا ... سُطاك لكان مكتئبا حزيناً

أدرتَ على الفِرِنج وقد تلاقتْ ... جموعُهمُ عليك رَحى طَحُونا

ويذكر انتصارات صلاح الدين المتلاحقة على حملة الصليب في بَيسان وغير بَيْسان، وتتراءى له مدن الساحل الشامي، وهي تنتظر مخلصها ومنقذها من الظلمة الأشرار، وإن القدس ليكاد يطير فرحا فقد أصبح وشيك الخلاص، وفعلا لم تمض شهور حتى فُتحت أبوابه لصلاح الدين وعاد، وعاد معه المسجد الأقصى إلى الإسلام والمسلمين، وإنه ليصيح مبتهجا فرحا:

لقد ساغ فَتْحُ القدسِ في كلّ منطقِ ... وشاع إلى أن أسمع الأسَلُ الصُماّ (٣)

---

(١) يطول: يفخر تيها

(٢) صور: مائلة وناظرة: الهام:الرءوس.

(٣) الأسل: الرماح والسيوف.

فليت فتى الخطّاب شاهدَ فَتْحَها فيشهد أن السهمَ من يوسفِ أصمَى

حَبَا مكةَ الحُسنى وثنى بيثربِ وأطرب ذياك الضريحَ وماضَمَّا

وأصبح ثغر الدينِ جذلانَ باسماً وألسنةُ الأغماد تُوسعه لَثْماَ

لقد فُتح القدس عنوة، وإن قعقعة السلاح لتكاد تسمع الصُم، وقد عاد المسجد وعادت فيه الصلاة، وتكبيرات المصلين وأذان المؤذنين. ويقرن فتح صلاح الدين للقدس فتحاً حربياً بفتح عمر بن الخطاب لها من قبل سلما. ويصور ابتهاج مواطن الوحي في مكة ويثرب وابتهاج الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح المبين، وكيف عمت البهجة والفرحة القدس ثغر الدين، وكأنما ألسنة الأغماد تعانقه وتقبله: تقبل كل ركن فيه. وله وراء هذه القصائد في صلاح الدين ست عشرة قصيدة. ونراه بعد وفاته يلزم ابنه نور الدين صاحب دمشق فيمدحه بقصائد مخلفة، غير أنه أخذ يتبرم بالشام وبمن حول نور الدين كما يتضح من قوله في مدحه له:

أبكتْنيَ الأيامُ مذ ضحكتْ لي عن نيوب نوابِ عُصْل [١]

أفدن خالني فماليّ في الـ سراءِ والضراء من خِلّ

وكان هذا الشعور بأنه لم يعد له صديق وفيّ في موطنه سببا في أن يشدّ رحاله إلى القاهرة فينزل بها ويتخذها دار مقام له حتى وفاته سنة ٦٠٤ وشعر فيها بأنه حياته أصبحت رغدة ناعمة وذكر ذلك مرارا في شعره، وكان قد وطد علاقاته بكثيرين من كبار رجال الدولة، وفي مقدمتهم القاضي الفاضل وله فيه اثنتا عشرة قصيدة. وبمجرد أن وضع قدمه في القاهرة أصبح من ندماء العزيز عثمان بن صلاح الدين حتى وفاته سنة ٥٩٥ وله فيه أكثر من ثلاثين مدحة. وربما كانت أيام العزيز أسعد أيامه بمصر. وهو يصور في مديحه منادمته له ومجالس أنسه. وله مدائح في السلطان العادل أخي صلاح الدين، ولكن تنقصها الحرارة. وقد عاش بمصر يتملى بمشاهد الطبيعة وصور ذلك في كثير من شعره، وفي دار الكتب المصرية ديوان له خاص بمقطعات النيل يبدو أ،ه اختيارات من ديوانه، وسنذكر بعضا من قصائده في طبيعة دمشق وطبيعة مصر وأيضًا بعضا من خمرياته.

---

(١) عصل: معوجة كأنياب الأسد.

الشهاب[١] محمود

هو محمود بن سليمان بن فهد الدمشقي الحنبلي، ولد بدمشق سنة ٦٤٤ وعنى بتربيته أبوه وكان فقيها حنبليا، فحفظ القرآن صبيا. وأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء الحنابلة والعلماء المختلفين مثل ابن مالك في النحو وابن الظهير الإربلي في الأدب وعليه تدرب فيه، وكان يجله ويوده مودة مخلصة، حتى إذا توفي سنة ٦٧٧ بكاه بقصيدة يقول فيها:

بكتْه معاليهِ ولم يُرّ قبلهُ كريمُ مضى والمكْرماتُ نَوادُبهْ

وبرع محمود في الأدب حتى فاق أقرانه ما جعل القائمين على ديوان الإنشاء في دمشق يعيّنونه فيه وهو في نحو الثلاثين من عمره، وظل فيه حتى سنة ٦٩٢ إذ نقل إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة بعد وفاة محيي الدين بن عبد الظاهر، ورأس هذا الديوان في عهد السلطان بيبرس البند قداري سنة ٧٠٨ حتى إذا توفى عبد الوهاب بن فضل الله العمري صاحب ديوان الإنشاء بدمشق نُقل إلى وظيفته هناك وظل قائما عليها حتى توفي سنة ٧٢٥. ومعنى ذلك أنه كان أديبا كاتبا محسنا وظل يسمى " حسن التوسل " غير أننا رأينا أن نسلكه بين الشعراء لأنه كان شاعرا متفوقا كما كان كاتبا بارعاً، بل أهم من لك أنه الشاعر الشامي الوحيد الذي صور حروب الظاهر مع التتار وحروبه وحروب قلاوون وابنه السلطان الأشرف خليل مع حملة الصليب تصويرا بديعا مما جعل ابن تغري بردي يقتصر في أغلب الأمر على وصفه لمعارك هؤلاء السلاطين.

وأول سلطان أشاد الشهاب محمود بانتصاراته الظاهر بيبرس وكان قد علم بحشود للتتار شرقي الفرات فزحف إليهم من الشام بجيش جرار وخاض إليهم الفرات وفتك بجموعهم وكاد أن لا يبقي باقية منهم. وعاد الملك الظاهر إلى دمشق مؤزرا منصورا، وأنشده الشهاب قصيدة طنانة يقول فيها:

سِرْ حيث شئتَ لك المهيمنُ جار ُواحكُمْ فَطَوْع مرادِك الأقدارُ

---

(١) انظر في الشهاب محمود وشعره فوات الوفيات لابن شاكر في ترجمته ٥٦٤/٢ وترجمة الظاهر بيبرس ١٦٤/١ وترجمة الأشرف خليل ٣٠٥/١ والجزء السابع والثامن والتاسع من النجوم الزاهرة. انظر فهرس تلك الأجزاء والبداية والنهاية لابن كثير ١٢٠/١٤ والدرر الكامنة لابن حجر ٩٢/٥ والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ٢٣٦/٢.

خُضْت الفُراتَ بسابحٍ أقصى مُنى هوجُ الصَّبا من نَعْله آثارُ

حملتْك أمواج الفُرات ومن رأى بحراً سواك تُقلُّه الأنهارُ [١]

رَشَّت دماؤهمُ الصعيدَ فلم يَطِر منهم على الجيش السعيد غبارُ

ولم يلبث التتار أن حشدوا جموعا لهم سنة ٦٧٥ وأيدتهم جموع من عسكر الروم، وتعاقدوا على منازلة يبرس، وعلم بتلك الجموع فباغتها محيطا بها من كل جانب، وقاتلت قتال الموت ولم يغن ذلك عنها شيئا، إذ كان يقتحم مع جنوده البواسل الأهوال كالأسد الضارية إلى أن انكسر التتار والروم وفروا معتصمين بجبال وراءهم، وأحاطت بهم العساكر المصرية وقتلت منهم مقتلة عظيمة وفي ذلك يقول الشهاب محمود:

كذا فلتكن في الله تمضى العزائمُ وإلا فلا تجفو الجفون الصوارم [٢]

بجيشٍ تظل الأرضُ منه كانها على سعة الأرجاء في الضيق خاتمُ

يحيط بمنصورِ اللواء مظفرٍ له النصر والتأييد عبدُ وخادم

مليكُ به للدين في كل ساعةٍ بشائر للكفار منها مآتمُ

مليكُ لأبكار الأقاليم نحوه حنينُ كذا تَهْوَى الكرامَ المكارمُ

وسنذكر في جزء مصر أن الظاهر بيبرس استولى على كثير من بلدان حملة الصليب وحصونهم مثل قيسارية وصَفد والرملة ويافا وأنطاكية مزيلا منها مملكتهم، ولم يدوّن ابن تغري بردي شيئا من شعر الشهاب محمود في هذه الفتوح الضخمة. ويسير السلطان قلاوون سيرة الظاهر في منازله الصليبيين، ويستولي على طرابلس مملكتهم الثالثة التي أسوها بعد مملكة بيت المقدس، وبذلك تكون جميع ممالكهم التي شادوها سقطتْ من قواعدها ولم يبق في أيديهم إلا عكا وصور وصيداء وبيروت وبعض حصون قليلة، ولم يلبث قلاوون أن استولى منهم على حصن المرقب، ومجّد فتوحه الشهاب محمود قائلاً:

اللهُ أكبرُ هذا النصرُ والظفر هذا هو الفتح لا ما تزعم السّيَرُ

---

(١) تقله: تحمله

(٢) جفن السيف: غمده. الصوارم جمع صارم: السيف القاطع.

هذا الذي كانت الآمال إن طمحتْ ... إلى الكواكب ترجوه وتنتظر

فانْهَض وسِرْ واملك الدنيا فقد نَحلَتْ ... شوقا منابرُها وارتاحتِ السُرُر [١]

إن لم يُوَف الوَرى بالشكر ما فتحتْ ... يداك فاللهُ والأملاك قد شكروا

وخلف قلاوون ابنه "السلطان الأشرف خليل"، وكان بطلا شجاعا مقداما وكان مخوف السطوة قوى البطش، وبمجرد أن استهلت سنة ٦٩٠ بعد جلوسه على عرش السلطنة بقليل تأهب لحصار عكا، فجمع الصناع لعمل آلات الحصار وخرج بعساكره من الديار المصرية حتى أحاط بعكا في شهر بيع الآخر، وكان المتطوعون أكثر من الجند ونصب عليها المجانيق، ولم يلبث أن زحف عليها بجيشه الجرار ودخلها بعد قتال عنيف. وطلب حملة الصليب البحر المتوسط فتبعتم الجنود الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلا قليل. وعَصى الداويّة والإسبتاريّة في أول الأمر معتصمين بأبراج عالية، غير أنهم اضطروا إلى التسليم، ومن غريب الصدف أن فتحها تم في السابع عشر من جمادي الأول سنة ٦٩٠ بالساعة الثالثة من النهار في نفس الموعد الذي كانت قد سقطت فيه بيد حملة الصليب سنة ٥٨٩. وفي هذا الفتح المبين ينشد الشهاب محمود قصيدة بديعة مهنئا "الأشرف خليل" مفتتحها لها بقوله:

الحمد لله ذَلتْ دولةُ الصُلُبِ ... وعّز بالترك دينُ المصطفى العربي

هذا الذي كانت الآمالّ لو طلبتْ ... رُؤياه في النوم لاستحيتْ من الطلب

ما بعد عَكاَ وقد هُدّت قواعدُها ... في البحر للشرك عند البّر من أربِ [٢]

لم يَبْقَ من بعدها للكفر منذ خَرِبَتْ ... في البحر والبر ما يُنجى سوى الهرب

يا يومَ عكا لقد أنسيت ما سبقتْب ... هـ الفتوحُ وما قد خُط في الكتب

بُشراك يا ملكَ الدنيا لقد شرفتْ ... بك الممالكُ واستعلتْ على الرّتب

وتفتح أبوابها مدينة صور لجند السلطان ويسلمها إليهم حملة الصليب وتليها مدينة صيداء وقلعة جُبيل وعثليث وأنطرطوس وبيروت. ويدور العام ويستولي الأشرف على

---

(١) السرر: جمع سرير: العرش

(٢) أرب: مطلب وأمنية

obeikandi.com

بقيـة حصـونهم ويمـد فتوحـه إلـى الشـرق ويسـتولي علـى قلعـة الـروم غربـي الفـرات، ويهنئـه الشهاب محمود بهذا النصر المتوالى قائلاً من مدحه طويلة.

وفتحُ بَدَا في إثر فتحٍ كأنما ساء بدتْ تَترى كواكبُها الزُهر

وعلـى هـذا النحـو سـجل الشـهاب محمـود فتوحـات السـلاطين الثلاثـة: الظـاهر بيبـرس وقـلاوون وخليـل تسـجيلا رائعـا. ولـه وراء هـذه المـدائح الحماسـية مـدائح نبويـة جمعهـا فـي ديـوان سـماه: " أهنـا المنـائح فـي أسـنى المـدائح " وهـو مفقـود، وسننشـد لـه قطعـا فـي حـديثنا عن شعراء التصوف والمديح النبوي.

منجك[١] بن محمد بن منجك

شركسـي دمشـقي نشـأ فـي بيـت نعمـة، فكـا أميـرا ابـن أميـر. ولـد سـنة سـبع بعـد الألـف للهجـرة وتـوفي سـنة ١٠٨٠ ونشـأ مثـل لداتـه الدمشـقيين يعنـي بـالعلم والتعلـيم، فحفـظ صـغيراً القـرآن الكـريم، حتـى إذا شـب عـن الطـوق أخـذ يختلـف إلـى علمـاء دمشـق، آخـذا القـراءات علـى الشـيخ عبـد الـرحمن العمـادي والحـديث النبـوي عـن الشـيخ الشـهاب أيـدمر الوفـائي، وأبـي العبـاس المقـري. أمـا الأدب الـذي شُـغف بـه منـذ نشـاته فقـد أخـذه عـن أحمـد بـن شـاهين. وكـان كريمـا مسـرفا مبالغـا فـي إسـرافه، فأنفقـه مـا خلّفـه لـه أبـوه، حتـى إذا تَرِبَـتْ يـداه وضـاقت بـه دنيـاه ولّـى وجهـه نحـو إسـتانبول، ولكنـه لـم يحقـق فيهـا مـا كـان يأملـه فعـاد إلـى دمشـق، ولـم يلبـث أن خـالط أصـدقاءه القـدماء. ولـه ديـوان شـعر جمعـه فضـل الله المحبـي والـد صـاحب خلاصـة الأثـر فـي أعيـان القـرن الحـادي عشـر أمـر مـن مفتـى الدولـة العثمانيـة: حسـام زاده، ولـه فيـه مـدائح كثيـرة. وديوانـه يحمـل كثيـراً مـن المـدائح والغزليـات والخمريـات، وأكثـر مدائحـه فـي الفقهـا والعلمـاء مـن شـيوخه وغيـر شـيوخه، وفـي مقدمـة مـن مدحهم شيخه في القراءات عبد الرحم مفتى دمشق وفيه يقول

تَنْدَى أناملُه ويُشرقُ وَجهُه فيجودُ بالآلاء واللألاءِ

يقظٌ لأعقاب الأمور كأنما جُلَيْت عليه حقائقُ الأشياء

---

(١) نظر في منجك ريحانة الألبا طبعة عيسى الحلبي ٢٣٢/١ وخلاصة الأثر ٤٩/٤ ونفخة الريحانة، وقد طبعت المطبعة الحنفية بدمشق مختارات من ديوانه باسم ديوان منجك.

obeikandi.com

ومهابةُ سادَ الولاة ولاؤها محفوفةُ بجلالةٍ وبهاء

وشمائلُ رقتْ كما خطرتْ على زَهْر الربيع بواكرُ الأنداء

والصياغة رصينة جزلة، والألفاظ مختارة منتخبة، والمعاني مكررة في المديح التقليدي، غير أن الشاعر يحاول أن يخرجها إخراجاً طريفاً على نحو ما يتضح في البيت الأول الذي جمع فيه بين الكرم والبشر المترقرق في وجه الممدوح، وبذلك جعله يجود بالآلاء والنعم كما يجود بلألاء الوجه وإشراقه وما يجرى فيه من بشر بهيج. والجناس بين الآلاء واللألاء جناس بديع. وواضح كيف لاءم في البيت الثاني بين معناه وبين الممدوح وكان مفتيا لدمشق، فوصفه بالفطنه ودقة الحدس، وبالثمل البيت الثالث وما جمع فيه بين المهابة والجلاة والبهاء مع حسن الصياغة، وقل ذلك نفسه في البيت الرابع فشمائل الفمتى رقيقة عطرة كزهر الربيع باكرته النسائم والأنداء.

وولى القضاء في دمشق والشام حسام زاده قبل توليه منصب ألافتاء في الدولة العثمانية وعم فضله وبرّه أدباءها وله ألف البديعي كتابيه: "هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام" و "الصبح المنبى في الكشف عن حيثية المتنبي" ويقول منجك في تهنئة له بالعيد:

آلى الزمانُ عليه أن يُوَاليكا يُنثى عليك ولا يأتي ثانيكا

إذا سَطا فبإحكام تنفذها وإن سَخَا فبِفضْلٍ من مساعيكا

من ذا يُضاهيك فيما حُزْت من شرفٍ ومْن يُدانيك في حلم ويحْكيكا

أعيادنا كلُها يومُ نراك بِه وليلةُ القدرِ وَقْتُ من لياليكا

والملاءمة بين معاني الأبيات ومنصب المفتى- وكان حينئذ قاضيا بدمشق- واضحة، والمبالغة واضحة في البيت الأول، ولكن الشاعر خففها بالجناس بين " يثني وثانيكا" وعاد إليها بقوة في البيت الأخير، وكان يكفيه أن تكون أيام لقائه للقاضي أعيادا، ولكنه أبى إلا المبالغة المسرفة إذ جعل ليلة القدر وقبول الدعاء بها ممن يحظون برؤيتها وقتُ من ليالي الشيخ. ولا ريب في أن صياغته ناصع،وأنه يغلب على شعره السلاسة، مع ما يوشيه به من جناس وطباق كما في البيت الثاني. ودائما محسنات البديع عنده مقبولة، وقلما يمازجها الثقل والتكلف. وله مدحة في أستاذة

المقري– وهو صاحب نفح الطيب– ويذكر أنه قرأ عليه كتاب " الشفا" وهو في مدح المصطفى سيد المرسلين، وتموج المدحة بإجلاله لعمله وتقواه، يقول:

يقضى النهار بآراء مسددة ويَقطع الليلَ تسبيحاً وقرآنا

وتلقنا وراء مدائحه في الديوان وعند من ترجموا له ألغاز، ومعرف أن الشعراء كانوا قد أخذوا يتلاعبون بها منذ القرن الخامس الهجري، وكثرت زمن المماليك والعثمانيين. وله غزليات وخمريات بديعة، سنذكر منها بعض أبيات في غير هذا الموضع.

obeikandl.com

٥

شعراء الفلسفة والحكمة

تشيع الحكمة في العشر العربي منذ العصر الجاهلي على نحو ما نجد عند زهير، فقد ضمن معلقته طائفة كبيرة من الحكم، وكأنهم أرادوا أن يصوروا لمعاصريهم خبرتهم بالحياة وإدراكهم لتجاربها حتى ينتفعوا بذلك أكبر نفع في فهم شئون الدنيا وشئون الناس وأحوالهم في سلوكهم. ومضى الشعراء بعد العصر الجاهلي يحاكون الجاهليين في تغذية أشعارهم بتلك الحكم، حتى إذا كان العصر العباسي أخذ الشعراء يضيفون إلى تراثهم من الحكم عادا جديدا من حكمة الفرس والهنود واليونان، وأخذ النابهون منهم يعتمدون على عقلوهم الخصبة في استخلاص الحكم من خبراتهم بأحوال الدنيا والناس، حتى ليبلغ بعضهم من ذلك أن تُحصى حكمه بالعشرات، بل أحيانا بالمئات على نحو ما عرف عن أبي تمام الشاعر الدمشقي، فقد أحصى بعض البلاغيين حكمه فوجدها ثلاثمائة وأربعة وخمسين بيتا سوى تسعين شرطا. وعاش المتنبي أكثر سنوات عمره في الشام وباديها وقد بلغ الذروة في تضمين مدائحه حكما رائعة، وأحصاها البلاغيون، فوجودها أربعمائة، سوى مائة وثلاثة وسبعين شطرا. ولكثرة ما يتناثر في شعره من حم أفردها بعض الأسلاف بالتأليف، وحاول بعض النقاد الوصل بينها وبين حكم أرسطو، وهي مبالغة مفرطة في التصور إذ أكثر حكمه من ثمار خبراته بالحياة خبرة فذة وظل شعراء الشام يستظهرون- بعد المتنبي وأبي تمام- الحكم في جوانب من أشعارهم، ولم تلبث الشام أن أهدت إلى الشعر العربي حكيما وفيلسوفا كبيرا، هو أبو العلاء المتوفى سنة ٤٤٩ وسنترجم له عما قليل.

وكان الطغراني قد لمع اسمه بنظمه لامية العجم، وقد صاغها جميعا حكما وأمثالا على طريقة مزدوجة أبي العتاهية التي سماها ذات الأمثال، والتي ضمنها أربعة ألاف مثل. ولامية الطغراني لا تبلغ مبلغها في حشد ألاف من الأمثال، وليست من بحر الرجز وإنما هي من البسيط على شاكلة نونية البُستي المشهورة. وقد أصبح تقليدا عند

كثير من شعراء الشام وغيهم أن يخصوا بعض قصائدهم برصف طائفة من الأمثال والحكم، ولابن منير الطرابلسي قصيدة من هذا الطراز يقول فيها [١]:

وإذا الكريمُ رأى الخمول نزيله ... في منزلٍ فالحزمُ أن يترحلا

كالبدر لما أن تضاءلَ جَدّ في ... طلب الكمال فحازه متنقلا

سفها لحلمك أن رضيتَ بمَشْرَب ... رَنْقٍ ورزق الله قد ملأ المَلا

فارقْ تَرُقْ كالسيف سُلّ فبان في ... مَتْنيه ما أخفى القِرابُ وأخملا

للقَفْر لا للفقر هبها إنما ... مَغناك ما أغناك أن تتوسَّلا

وهي أمثال وحكم يراد بها النصح لسلوك الشخص الكريم على نفسه في الحياة. فلا يرضى بمنزل هون، بل يرحل ويتنقل، فكمال البدر وعز الشخص في تنقله. ويزجر من يرضى المشرب الكدر ورزق الله قد طبق الملا أو الأرض وملأها بالطيبات، وهل يقطع السف إلا بعد أن يُسل من قرابه أو غمده، وعار ما بعده عار أن يتضرع الشخص ويتذلل لإنسان مثله، ولأن يركب القفّر المجدب الخرابَ خيرُ من أن يقف بباب.

ودائما تلقانا هذه الحكم في تضاعيف قصائد الشعراء ومقطوعاتهم، وفي كتاب طبقات الأطباء لابن ابي أصيبعة منها طائفة جرت على ألسنة أطباء الشام، ويلقانا مها أيضا منثورات في كتب التاريخ كقول شمس الدين الحمصي [٢]:

الدهُر كالطيف بُؤساه وأنعمهُ ... عن غي قَصْدٍ فلا تَحمْد ولا تَمُلم

لا تسأل الدهَر في البأساء يَكشفها ... فلو سألتَ دوامَ البوس لم يدم

فكل شئ حائل وزائل ولا دوام لضر أو نفع ولا لبؤس أو نعيم، ولا دخل لدهر في شئ من ذلك، ولا يأس مع رحمة الله فلا بؤس يدوم ولا ضر يدوم. وربما كانت أروع

---

(١) ابن خلكان ١٥٦/١

(٢) النجوم الزاهرة ٣٤٥/٧

قصيدة من قصائد هذه الأمثال والحكم في العصر المملوكي قصيدة عمر بن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة وهي في أكثر من سبعين بيتا. فيها يقول [١]:

اعتزلْ ذكرَ الأغاني والغزل ... وقل الفَصْلَ وجانب مَنْ هزلَ

واتق الله فتقوى الله ما ... مازجت قلب امرئ إلا وصل

قاطع الدنيا فمن عاداتها ... تخفض العالي وتُعلي من سَفل

لا تقل أصلي وفصلي أبدا ... إنما اصلُ الفتى ما قد حَصَلْ

مِلْ عن النمّام واهجرهُ فما ... بلغ المكروه إلا مَن نقَلْ

والقصيدة جميعها على هذه الشاكلة حكم وأمثال ونصائح غالية وكأنها أعلام تهدي الإنسان في سلوكه الطريق القويم. ويظل الشعراء بعد ابن الوردي ينظمون مثل هذه الحكم أيام المماليك وأيضاً أيام العثمانيين، إذ نقرأ لبعض الشعراء حكما وأمثالا منثورة في أشعارهم وتراجمهم، كقول حسين بن أحمد الجزري الحلبي المتوفى سنة ١٠٣٤ للهجرة [٢]:

حاذر عداك الأقربين من الوَرَى ... فأضرّها القُرَباءُ والقُراءُ

وتوقّ من كيد الحقود ولين ما ... يُبْدي فقد يُصدى الحسامَ الماءُ

ويذكر ابن معصوم لشاعر يسمى نجيب الدين علي بن محمد العاملي رحلة أودعها أشعارا على طريقة ديوان الصادح والباغم لابن الهبارية وما فيه من حكم ومعان خلقية تهذيبية، ويسوق ابن معصوم طائفة من حكمه كقوله [٣]:

المرء لا يسلم من حاسدٍ ... أو شامتٍ في اليُسر والعُسر

وتكثر الحكم أيضا في كتاب نفحة الرياني للمحبي، وهي من قديم كثيرة في الشعر العربي كما أسلفنا. وحري بنا أن نقف قليلا عند أبي العلاء أكبر شعراء الحكمة

---

(١) الكشكول لبهاء الدين العاملي (طبعة عيسى البابي الحلى) ٣٠٦/١

(٢) ريحانة الألبا ١٢٢/١

(٣) سلافة العصر لابن معصوم ص ٣١٠

والفلسفة لا في الشام وحدها بل في العالم العربي جميعه. ونتلوه بكلمة عن منصور بن مسلم.

أبو العلاء[١] المعريّ

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان لتنوخي، ولد في ربيع الأول سنة ٣٦٣ للهجرة في بلدة تسمى " مَعرة النعمان" من أعمال حمص بين حلب وحماة، وإليها ينسب، واشتهر بكنيته " أبي العلاء" وفي ذلك يقول:

دُعيتُ أبا العلاء وذاك مَين ولكن الصحيح أبو النزول

وأسرته تنحدر من قبيلة تنوخ إحدى القبائل العربية الجنوبية، وما إن بلغ الرابعة من عمره حتى اعتلّ علة الجدرى وذهب فيها بصره، وكان يقول: " لا أعرف من الألوان إلا اللون الأحمر لأني ألبست في الجُدري ثوبا مصبوغا بالعُصفر، لا أعقل غير ذلك ". وكان بيته بيت قضاء وعلم وشعر، إذ ظل قضاة المعرة طويلا فيهم، وألم بهم ياقوت في ترجمته له بمعجم الأدباء وذكر لهم طرائف من أشعارهم. وطبيعي أن يقتدي بهم فيُكب بعد حفظه القرآن على كتب الدين الحنيف واللغة. وأيضاً فإن فقده لبصره مبكرا جعله يُعنى بطلب العلم. وتتلمذ على أبيه ألوا ومَنْ في بلدته من تلامذة ابن خالويه، ولم يلبث حين أخذ ما عندهم جميعا أن رحل إلى حلب وحضر على علمائها وعاد منها وهو في نحو العشرين من عمره سنة ٣٨٤. وحين بلغ الثلاثين من عمره سأل ربه إنعاما، ورزقه صوم الهر، فلم يفطر في السنة والشهر إلا في العيدين.

ورحل إلى بغداد في أواخر سنة ٣٩٨ وبقى بها نحو سنة وسبعة أشهر، وكان من أسباب عودته منها سريعا نشوب خصومة بينه وبين المرتضى العلومي أخير الشريف

---

(١) انظر في ترجمة أبي العلاء وشعره معجم الأدباء ١٠٨/٣ وتعريف القدماء بأبي العلاء (طبع دار الكتب المصرية) وفيه كل ما كتب عنه تقريبا في المراجع القديمة ومن أهمه رسالة الإنصاف والتحرى في دفع الظلم والتجرى عن أبي العلاء المعري لابن العديم الحلبي وهي دفاع قوي عنه ونفي لما قيل من غلحاده. وانظر فيه كتاب تجديد ذكرى أبى العلاء لطه حسين (طبع دار المعارف) وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف ٣٥/٥ وكتبنا: كتاب الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة العاشرة) ص ٣٧٦ والفن ومذاهبه في الثتر العربي ص ٢٦٥ وفصول في الشعر ونقده ص ١٠٧ وترجمته في دائرة المعارف الإسلامية ومطالعات لعباس محمود العقاد ص ٧٠ وأبو العلاء المعري للدكتورة عائشة عبد الرحمن ومقدمتها لتحقيقها لرسالة الغفران. وطبع له سقط الزند بشروح مختلفة واللزوميات ورسالة الغفران والصاهل والشاحج ورسائلة بتحقيق الدكتور عبد الكريم خليفة وكذلك بتحقيق الدكتور إحسان عباس وانظر الحضارة الإسلامية لميتز ١١٠/٢.

الرضـى سـبب تعصـبه للمتنبـي، وأيضـا كـان قـد وصـله خبـر بمـرض أمـه، فعـاد عـدلا، ووجدها قد لبت نـداء ربهـا. وأخـذ نفسـه منذ هذا التـاريخ فـي سـنة ٤٠٠ بحايـة زاهدة خشـنة ملازما داره وبلدته لا يبرحها، والى ذلك يشير بقوله:

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيثِ (١)

لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسم الخبيث

ثلاثـة سـجون أحاطـت قضـبانها بـه: سـجن روحـه فـي جسـده وسـجن داره وسـجن فقـده لبصـره، وظـل يفـرغ نحـو خمسـين عامـا لـنظم زومياتـه ولتـأليف كتبـه الكبـرى، ومـر بنـا أن حلـب تبعـت مصـر منـذ سـنة ٤٠٧ إلـى سـنة ٤١٥ وكـان أول ولاتهـا للحـام بـأمر الله الفـاطمي عزيـز الدولـة فاتـك الوحيـدي ولـه ألـف أبـو العـلاء كتـاب الصـاهل والشـاحج متحـدثا فيـه علـى لسـان فـرس وبغـل، وقـد حققتـه الـدكتورة عائشـة عبـد الـرحمن ونشـرته دار المعـارف، ويقـول ابـن العـديم إنـه ألفـه لفاتـك بسـبب حـق علـى بعـض اقربائـه. ولـه أيضـا صـنع كتابـه " القـائف" وهـو أمثـال علـى طريقـة كليلـة ودمنـة، ولـم يكـد يـتم الجـزء الرابـع منـه حتـى تـوفى فاتـك سـنة ٤١٣ فعـدل عـن إتمامـه. وولـى حلـب بعـد فاتـك سـند الدولـة الكُتاكمي سنة ٤١٤ وقدّم له أبو العلاء الرسالة السندية في مجلد واحد.

واعتقـل صـالح بـن مـرداس أميـر حلـب فـي سـنة ٤١٨ سـبعين رجـلاً مـن المعـرة هـم مشـايخها وأمائلهـا، واجتـاز صـالح بـالمعرة، فخـرج إليـه أبـو العـلاء شـافعا فـيهم فقـال لـه صالح: ~" قد وهبتهم لك أيها الشيخ". وعاد إلى داره وهو ينشد:

بعثتُ شفيعا إلى صالحٍ وذاك من القوم رأى فسدْ

فيسمع منى سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد

ومنـذ حـبس نفسـه فـي داره أصـبح مـلاذاً لطـلاب العلـم فـي العـالم العربـي، فهـم يغـدون علهـي ويروحـون يأخـذون عنـه كتبـه وشـروها، وبالمثـل دواوينـه وشـروحها، وكثيـرًا مـن كتـب اللغـة وفـي مقـدمتها كتـاب غريـب الحـديث لأبـي عبيـد القاسـم بـن سـلام غيـر كتـب لغويـة أخـرى كثيـرة. ويقـول ابـن فضـل الله العمـري: "أخـذ عـن أبـي العـلاء خلـق لا يعلمهـم إلا الله

(١) النبيث: الخفي

عز وجل، كلهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل تبحر وديانات... وكان له أربعة من الكتاب المجّودين يكتبون عنه ما يكتبه إلى الناس وما يمليه من النظم والنثر والتصانيف والإجازات والسماع لمن يسمع منه ويستجيزه". وعقد ابن العديم في كتابه عنه المسمى "الإنصاف والتحري" فصلا ذكر فيه مشاهير تلاميذه.

وكان أبو العلاء آية خارقة في الذكاء وقوة الحافظة حتى قالوا إنه كان يلعب النرد والشطرنج وإذا سمع حديثا بلغة غير العربية حفظه بحذافيره، وقد تحول يعبّ وينهل من ثقافات عصره حتى استوعبها جميعها سواء المترجم عن اليونانية من فلسفة وغير فلسفة، أو المترجم عن الفارسية والهندسية فكل ذلك مضافا إلى الثقافتين: الإسلامية والعربية تمثله أبو العلاء تمثلا حيا خصبا، يرفعه إلى أعلى منزله، يتمثل صاحبها التراث الإنساني جميعه.

ومنذ سنّ الثلاثين اختار لنفسه صوم الدهر ما عدا أيام الأعياد كما أسلفنا، وأختار لنفسه معه حياة زاهدة، وذرك ذلك في عشره إذ قال إن طعامه العدس والتين أو كما يسميهما البلسن والبلس رافضاً ما وراءهما من طيبات الطعام ولذائذه، إذ يقول:

يقنعني بُلسنُ يمارس لي فإن أتتني حلاوة فبلسْ

ويقول ناصر خسرو في رحلته المسماة " سفرنامه" إنه زاره سنة ٤١٨ فوجده في سعة من العيش مما جعل بروكلمان يشك في أنه عاش معيشة زاهدة. وهو قول مدفوع بإجماع من ترجموا له من القدماء: أنه كان يعيش معيشة زهد وتقشف، حتى لنرى القفطي– وهو أحد من تحاملوا علهي ورموه بالإحاد– يقول: لم يكن أبو العلاء من ذوى الأموال، وإنما خُلف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه، وكانت له نفس تشرف عن تحمل المِنن، فمشى حاله على قدر الموجود، فاقتضى ذاك خشن الملبوس والمأكل والزهد في ملاذ الدنيا، وكان الذي يحصل له في السنة مقدار ثلاثين ديناراً قدرّ منها لمن يخدمه النصف، وأبقى النصف الآخر لمئونته، فكان أكله العدس– إذا أكل– مطبوخا وحلاوته التين، ولباسه خشن الثياب من القطن وفرشه من لباد (صوف) في الشتاء وحصيرة من البّردي ف الصيف، وترك ما سوى ذلك ك. وربما كان هذا الدخل القليل من أسباب تركه لأكل اللحم ومستخرجاته من البيض واللبن. لا أخذا بمذاهب

الحكماء ولا اتباعا لمذهب البراهمة الهندي، كما قيل، بل لضيق ذات يده وإشفاقا على الحيوان، ولعله صنع ذلك مبالغة في الزهد ورفض طيبات الحياة.

وكان أبو العلاء يحسّ بعمق آلام الإنسان في دُنياه، ولعل ذلك ما جعله يعزف عن الزواج حتى لا يرزق بولد يكابد من دنياه ما كابده وصرح بذلك قائلاً:

هذا جناهُ أبي عليّ وما جنيت علىأحدْ

ويقال إنه أوصى بكتابة هذا البيت على قبره حين أوشك على مفارقه الدنيا في سنة ٤٤٩ وله رسائل كثيرة جمع منها أخيراً الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الأردني نحو أربعين رسالة، ونشرها في ثلاث مجموعات، بدأها بالرسالة المنيحية التي أرسل بها إلى الوزير البغدادي أبي القاسم المغربي وتلاها بالرسالة الإغريضية المرسلة إلى الوزير نفسه. ويبدو أنه أرسل بالرسالتين إليه بعد فراره لعهد الحاكم بأمر الله من مصر، وسنعرض لهذه الرسائل في غير هذا الموضع. ولأبي العلاء أيضا رسالة الملائكة وهي في مسائل التصريف، طُبعت قديما بالقاهرة. ورسالة الغفران له مشهورة، وسنلم بها وبكتابه الفصول والغايات ف حديثنا عن النثر. وله " ملقى السبيل " في الوعظ والزهد، وهو فيه يصوغ المعنى نثرا ثم يصوغه شعرا. وله ديوان صغير سماه الدرعيات وهو أشعار في وصف الدروع، وقد طبع ملحقا بديوانه الكبير سقط الزند.

ونقف قليلا لنتحدث عن السقط ثم عن ديوانه الكبير الثاني اللزوميات، والسقط أول ما يخرج من نار الزند وشرره، سمى أبو العلاء ديوانه الأول بهذا الاسم إشارة إلى أنه أول ما نظم وسمح به خاطره فشبهه بالسقط. وه يجمع شعر الصبا ومنه قصيدة نظمها في رثاء أبيه وهو في الرابعة عشرة من عمره وشعر الشباب وبعض شعر له في الكهولة ومنه قصيدة نظمها في رثاء أمه وأخرى أرسل بها شاكرا مثنياً إلى خازن دار العلم ببغداد. وشرح أبو العلاء هذا الديوان وسميّ شرحه " ضو السقط " وقد طُبع في مصر قديم. وطبعت دار الكتب المصرية الديوان ومعه ثلاثة شروح: شسرح لتلميذه التبريزي وشرح لأبي محمد البطليوسي الأندلسي وشرح لأبي الفضل قاسم الخوارزمي، وهو في خمس مجلدات كبيرة. والديوان يكتظ بالمديح والرثاء والفخر والنسب والوصف

وأكثره في المديح، وجمهوره في مديح أشخاص خياليين، وذكر ذلك في مقدمته قائلاً " لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحت طلبا للثواب إنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السوس (الطبع) فالحمد لله الذي ستر بغُفة (بُلغةٍ) من قوام العيش ". ونفس ممدوحيه القليلين لم يوجه إليهم مديحه- كما قال- طلبا للثواب أو النوال وإنما هم بعض أصدقائه كتبوا إليه فرأى أن يجيبهم شعرا، وربما مدحهم شاكرا صنيعا لهم على نحو ما ذكرنا من ثنائه على خازن دار العلم ببغداد واصفا عونه الحميد له في أثناء تردده على تلك الدار ومكتبتها الكبرى المشهورة. وطبيعي أن يخلو هذا الديوان من الهجاء والخمريات ووصف الصيد. وهو في الديوان- بعامة- يحاكي المتنبي، وكان يرفعه فوق جميع الشعراء، وشرح ديوانه وسمّاه معجز أحمد بينما سميّ شرحه لديوان أبي تمام: " ذكرى حبيب " وشرحه لديوان البحتري " عبث الوليد " ويفجؤنا في الديوان فخر عنيف على نحو ما نقرأ في قصيدته:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

وهذا الصوت القوي المفاخر المباهي بالمجد والعبقرية يكاد يختفي بعد ذلك من الديوان، إذ يعود أبو العلاء إلى صوته الحقيقي: صوت اليأس من الناس والحياة والمعرفة بالدهر وتصاريف أيامه ولياليه. وهو يذكر الليل وظلمته كثيرا، ولعل ذلك بسبب فقده لبصره، وأيضاً بسبب تشاؤمه وما حمل من أثقال الدنيا دون أن يجد معيناً. وقد شكا كثيرا من أنه لا يجد في الدنيا صديقا ولا أخا يُصفيه الوداد، مع كثرة بغضه للإنفراد، حتى ليقول:

ولو أني حبيت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

ويبالغ أبو العلاء في سوء ظنه بالناس في نفس هذه القصيدة الدالية، فيقول إن الجوزاء منزل عُطار المنسوب إليه لو خبرت الناس خبرته وبلاءه وجربت من كيدهم ما جرب وعرفت من خُبث سرائرهم ما عرف لما طلعت عليهم ليلا ولا تراءت لهم مخافة أن يصل إليها كيد من كيدهم يقول:

فظن بسائر الإخوان شرا ولا تأمن على سر فؤادا

فلو خبرتهم الجوزاء خبري لما طلعت مخافة أن تُكادا

ومضى يخفف حدة التشاؤم الأسود المعتم ببروق كثيرة من الفخر، فمكانه في السؤدد فوق السموات السبع رفعة وعلاء، وإنه ليفل نوائب الأيام وكوارثها وحده بقوته ومضائه.

وفي رأينا أن أروع قصائد أبو العلاء في سقط الزند مراثيه لأنها تفصل من ذات نفسه ومن اهمها مرثيته لصديقه الفقيه.

غير مُجد في ملتي واعتقادي نوح باكٍ ولا ترنم شادي

وشبيه صوت النعي إذا قيـ س بصوت البشير في كل نادي

وواضح أنه يقول في مطلعها إن البكاء الحزين كالغناء الفرح دلالتهما واحدة، إذ سرعان ما تتحول البشارة بالمولود– مهام طالت حياته– صراخا عليه، حتى لكأن الصوتين متشابهان أو مختلطان اختلاط شجو الحمامة فلا يدري السامع أتبكي محزنة أم تغني مبتهجة، ويمضى أبو العلاء في مثل هذه ألافكار العميقة طالبا من قارئه أن يخفف من وط، أقدامه على الارض لأن ترابها من اديم آبائه وأجداده، وكأن الأرض مقبرة كبرى، كم من لحدٍ فيها يضحك من تزاحم الأضداد فيه بين صالح وطالح. ولا يلبث أن يقول إن الحياة كلها تعب وعناء وشقاء لا ضفاف له، وإن الحزن على الميت والفجيعة فيه لأضعاف السرور ساعة ميلاده. ولأبي العلاء مرثية ثانية يرثى بها صديقا من أبناء عمومته، وهي تكتظ بالحكم من مثل قوله:

لو عرف الإنسان مقداره لم يفخر المولى على عبده

أضحى الذي أجل في سنة مثل الذي عوجل في مهده

ولا يبالي الميت في قبره بذمة شيع أم حمده

والواحد المفرد في حتفه كالحاشد المكثر في حشده

ورب ظمآن إلى مورد والموت لو يعلم في ورده

وديوانه الثاني اللزوميات أو لزوم ما لا يلزم هو الأهم لأنه يحمل فلسفته أو تفكيره الفلسفي بجميع أسسه وشعبه، وقد تكلف فيه- كما يقول في مقدمته- ثلاث كلف: الأولى أنه ينتظم حروف المعجم جميعها. والثانية أن رويّه يجئ بالحركات الثلاث ثم بالسكون، والثالثة أنه التزم مع كل روى فيه شيئا لا يلزم من باء أو تاء أو غير ذلك من حروف. وقد أوضحنا في كتابنا " الفن ومذاهبه في الشعر العربي أنه أضاف إلى هذه الكلف الثلاث كلفاً كان يشغل بها الفراغ الطويل الذي نظم فيه اللزوميات إذ امتد إلى نحو خمسين عاما. ومن هذه الكلف الدائمة ومنها العارضة أما الدائمة فاستخدامه للفظ الغريب وللجناس وقد التمس فيه ضروبا من التعقيد، كما مرّ بنا في غير هذا الموضع، إذ يجانس تارة بين القافية وكلمة في البيت وتارة ثانية بينها وبين أول كلمة فيه وقد يضيف إليها حرفا أو أكثر مكن الكلمة التالية ليتسم نسق الجناس. وبجانب هاتين الكلفتين الدائمتين في اللزوميات نجد كلفا عارضة من تصنعه الواسع لألفاظ الثقافات المختلفة. بحيث يُعد أول من وسع استعارة الشعراء لاصطلاحات العلوم والفنون في أشعارهم.

ومع كل هذه الكلف والصعوبات التي ضيّق بها الممرات إلى قوافي الديوان استطاع أن ينظم مجلدين ضخمين في الشعر، ضمنهما فلسفته أو تفكيره الفلسفي المتشائم وهو تفكير شُغل فيه بإنسان عصره والإنسان عامة وبالقضية التي طالما شغلت كبار المفكرين قضية الشر الذي]ثب على الإنسان والحياة الإنسانية صبا دون أن يعرف أسبابه ودونت أن يستطيع له دفعاً أو رداً. ويتسع به التفكير في شرور الحياة الإنسانية وآلامها ويستولي عليه تشاؤم لا أول له ولا آخر، كما يستولي عليه يأس يثقل عليه ثقلا طويلا ويملأ نفسه شقاء وعناء. وإذا كانت الحياة على هذا النحو من الشر ففيم إذن تلقى الأبناء لها من آبائهم وفيم الزواج وهي شر متصل، شر يؤذن دائماً بالكوارث والخطوب وتلاحق الفواجع والنكبات، ولا منقذ ولا مخلص:

وهل يأبق الإنسان من ملك ربه ويخرج من أرض له وسماء

إنه أسير شرور الحياة وهو لا يستطيع منها فكاكا ولا خلاصا، وحري به أن لا يتخذ ولدا حتى لا يرمى به في أتون هذه الشرور المهلكة. ولا تشغل أبو العلاء في لزومياته الشرور الكبرى التي تقع دائما على عاتق الإنسان بل تشغله أيضا الشرور

الصغرى التي تحيط بإنسان عصره، وأي شرور ؟ شرور الحكم الفاسد لمصر والشام: حكم الفاطميين الذين أحاطهم دعاتهم بهالة قدسية، حتى زعموا أن قدرة الله انتقلت إليهم، كبرت كلمة تخرج من أفواههم، ولججوا في نعتهم بصفات الله حتى آمنت طائفة في زمن أبي العلاء بتجسد الألوهية في الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي.

وهذا البهتان في العقيدة كان يروّج له دعاتهم وخطباؤهم في المساجد، وفي رأينا أنهم المقصودون بحملة أبو العلاء على علماء الدين في أيامه بمثل قوله:

نادت على الدين في الآفاق طائفة يا قوم من يشترى دينا بدينار

جنوا كبائر آثام وقد زعموا أن الصغائر تجني الخلد في النار

وهو يتهمهم بأنهم باعوا باتباعهم المذهب الفاطمي دينهم بثمن بخس دراهم معدودة. وكما حمل على علماء الدين المروجين للعقيدة الفاطمية حمل على الصوفية لقولهم بالحلول، وسخر كثيرا من ذكرهم وتواجدهم فيه، وسماه رقصا ومن قوله فيهم:

تزيوا بالتصوف عن خداع فهل رزت الرجال أو اعتمت [١]

وقاموا في تواجدهم فداروا كأنهم ثمال من كميت [٢]

وهاجم أحكام عامة الذين يرهقون الشعب بضرائب فادحة، دون أن يؤدوا بها أي نفع له أو أي مصلحة، وفي ذلك يقول:

وأرى ملوكاً لا تحوط رعية فعلام تؤخذ جزية ومكوس

ويقول فيهم:

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

فهم أجراء عند الشعب يأخذون رواتبهم من كدّه ويعتصرونها من عرقه، ومع ذلك يظلمونه ويبغون عليه ويكيدوه له ويأتمرون به. ويتسع بحملته، فيشمل بها الناس من حوله فلا أخ كما مر بنا ولا صديق، وقد شاع الطمع والحقد والمكر والخديعة والخلق

---

(١) راز: اختبر، اعتمى: اختار

(٢) الكميت: الخمر، ثمال: سكارى.

الـزريّ المشـين. ولـم يـنس المـرأة فـي إعـلان هـذا السـخط، فقـد وصـفها بأنهـا لا تنصـف فـي الود ولا تفي للعهد، ولم ينصح بتعلمها فحسبها في رأيه– الغزل والنسيج أو الحياكة:

علموهن النسج والغزل والرد ن وخلوا كتابة وقراءة

وإنمـا دفعـه إلـى ذلـك– فـي رأينـا– فسـاد المجتمـع فـي بعـض جوانبـه. وقـد دفعـه شـعوره بالرحمـة علـى الفقـراء لزمنـه والرأفـه بهـم أن دعـا إلـى المسـاواة بـين النـاس فـي السـراء والضراء، يقول:

كيف لا يشرك المضيقين في النعـ مة قوم عليهم النعماء

وكـل هـذه جوانـب تمـس إنسـان عصـره ومـا كـان يريـد لـه مـن حيـاة كريمـة، ولـيس هـذا هـو الشـطر الأكبـر فـي اللزوميـات، فقـد أودعهـا كمـا مـرّ بنـا آنفـا كـل مـا شـعر بـه مـن آلام الإنسـان وأصـابه وأوجاعـه فـي دنيـاه إزاء مـا يُصـب عليـه مـن شـرورها وهمومهـا وأفاعيهـا التي تلدغه صباح مساء.

ويُشـيع أبـو العـلاء فـي أشـعراه حيـرة تتـراءى ظلالهـا فـي اللزوميـات ممـا جعـل بعـض القـدماء والمعاصـرين يقولـون إنـه كـان يشـك فـي كـل شـئ ويتخـذ الشـك عقيـدة لـه– كمـا اتخـذه السوفسـطائيون– ويسـلطه علـى مـا حولـه حتـى علـى الـديانات، واسـتدلوا علـى ذلـك بمثل قوله:

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضللة

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

والبيتـان فـي هجـاء أصـحاب هـذه الـديانات لزمنـه لا الـديانات نفسـها، إذ توزعـوا أيامـه فرقـا كثيـرة، وكـل فرقـة تكفـر أختهـا فـي داخـل الـدين الواحـد، وكـان المـذهب الإسـماعيلي الفـاطمي قائمـا فـي مصـر ويـدعو لـه الحكـام وعلمـاء الـدين فـي الشـام. وطبيعـي أن يعجـب ممـن يـدعو لهـذا المـذهب المسـرف فـي الغلـو غلـواً شـديداً، بـل المسـرف فـي الانحـراف عـن الإسـلام انحرافـا مفرطـا. وقـد استعرضـنا فـي مقالنـا عـن التفكيـر الفلسـفي فـي شـعر أبـي العـلاء بكتابنـا " فصـول فـي الشـعر ونقـده" الأشـعار التـي قـالوا إنهـا هـاجم بهـا الـديانات ووصـموه مـن أجلهـا بالإلحـاد وأثبتنـا أن بينهـا منحـولا كثيـرا انتحلـه عليـه خصـومه. ويـدو أن

أياد شريرة امتدت إلى اللزوميات قديما وأدخلت عليها فسادا غير قليل، يدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نقرأ فيها:

قد ترامت إلى الفساد البرايا　　　واستوت في الضلالة الأديان

والبيت على هاذ النحو يلصق تهمة الالحاد بأبي العلاء، إذ ينسب الضلالة إلى جميع الأديان، غير ~أنا إذا رجعنا إلى كتاب شرح المختار في لزوميات أبو العلاء لابن السيد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١ بعد أبو العلاء بسبعين عاما وجدناه ينشده على هذا النمط.

قد ترامت إلى الفساد البرايا　　　ونهتنا لو ننتهي الأديان

ورواية البطليوسي للبيت أوثق من رواية اللزوميات المطبوعة لأنها أقدم من مخطوطاتها التي اعتمدت عليها وأيضاً من النسخ الخطية المحفوظة في دار الكتب المصرية، مما يدل بوضوح على أن تحريفات [١] مقصودة لبعض ذوى الأهواء الملحدين أدخلت على اللزميات من قديم. ومن المؤكد أه أضيفت إليه بعض أشعار الزنادقة [٢] مثل ابن الراوندي. وقرأ بعض المعاصرين عنده أبياتا ظنوا منها أنه يؤمن بقدم المادة والزمان والكواكب وخلودها مخالفا بذلك رأي المتكلمين المسلمين في حدوثها جميعا وأنها ليست قديمة فلا قديم سوى الله، وهي في واقع الأمر أبيات شبهت عليهم في مثل قوله:

أرى زمنا تقادم غير فان　　　فسبحان المهيمن ذي الكمال

وقوله:

يا شهب إنك في السماء قديمة　　　وأشرت للحكماء كل مُشار

وهو في البيت الأول جعل الله مسيطرا على الزمان مشيراً بذلك إلى أنه محدث من صنعه، وكل ما هناك أنه قال إن الزمان تقادم أي تعمق في القدم، وجعل الشهب في

---

(١) أشار د. حامد عبد المجيد محقق شسرح البطليوسي في مقدمته إلى أن المختار فيه من اللزوميات يصحح بعض ما حرف من شعر أبو العلاء ووضع واستشهد على ذلك بالبيت المذكور.

(٢) انظر " أبو العلاء المصري" للدكتورة عائشة عبد الرحمن ص ٢٣٤ وراجع معاهد التنصيص (طبعة بولاق) ص ٧١ وقارن بإنباه الرواة للقفطي ١/٧٥.

obeikandi.com

البيت الثاني قديمة وهو لا يقصد بالقدم في البيتين ما يناقض الحدوث إنما ما يناقض الحداثة بشهادة قوله:

وليس اعتقادي خلود النجوم ولا مذهبي قدم العالم

فهو لا يقول بخلود ألافلاك والكواكب والمادة ولا بقدمها كما كان يقول فلاسفة اليونان، وإنما دخل الخطأ على بعض الباحثين من فهمهم القدم في مثل البيتين السالفين– كما قلنا– بأنه يعني نقيض الحدوث وهو إنما يعني نقيض الحداثة، وقد بسطنا ذلك في مقالنا عن أبو العلاء بكتابنا المذكور آنفا، وأوضحنا أنه في أشعاره مؤمن إيمانا عميقا بالديانات السماوية والدين الحنيف ورسالته السامية، كما أوضحنا أن هذا الإيمان أصل أساسي من أصول تفكيره الفلسفي العلائي، وأنشدنا له طائفة من الأشعار التي تصور بوضوح إيمانه بالتكاليف الشرعية وبالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكل ما يتصل به من بعث ونشور من مثل قوله:

أقيم خمسي وصوم الدهر آلفه وأدمن الذكر أبكاراً بآصال

فهو صائم الدهر، فرض على نفسه الصوم حين بلغ الثلاثين من عمره كما مر بنا، وهو دائما يتجه إلى ربه مصليا الصلوات الخمس دون أي انقطاع واصلا صلاته بالصيام والدعاء والذكر والتبتل والاستغفار. ويعترف مرارا بالبعث والحساب وأن ملكين يكتبان عن يمينه وشماله حسناته وسيئاته، يقول:

قد راعني للحساب ذكر وغرّني أنه بعيد

وعن يميني وعن شمالي بصحبتي حافظ قعيد

وهو يستلهم في البيتين قوله تعالى: (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ١٨.مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد). ويعترف بحساب القبر وسؤال الملكين منكر ونكير فيه للناس، يقول مخاطبا الليالي:

خلصيني من ضنك ما أنا فيه واطرحيني لمنكر ونكير

ويشعر في عمق بأنه مقصر مهما قدم لربه من عباده، ويأمل دائماً في عفوه ومغفرته يوم النشور، يقول ضارعاً:

ومغفرة الله مرجوة	إذا أصبحت أعظمى في الرمم
ويا ليتني هامد لا أقوم	إذا نهضوا ينفضون اللمم
ونادى المنادى على غفلة	فلم يبق في أذن من صمم
وجاءت صحائفُ قد ضمنت	كبائر آثامهم واللمم [١]
وليت العقوبة ترحيقة	فصاروا رمادا بها أو حمم [٢]

فهو آمل في غفران الله. ومع حياته الزاهدة الناسكة يخاف لقاء ربه حتى ليتمنى أن لا يبعث يوم القيامة (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ) كما جاء في سورة ق، فيهب الناس من رقادهم. ويقول أبو العلاء إنه يسمعون النداء أو الصيحة بآذانهم، ويستلهم مثل قوله تعالى: (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا). وما يلبث أن يقول ليت العقاي يوم القيامة كان تحريقا يصبح العصاة به رماداً أو حمما فيستريحون، ولكنه عذاب خالد، وقد تكرر ذلك في القرآن كثيرا مثل: (أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ولعل في ذلك ما يسقط كل ما قاله عنه بروكلمان في ترجمته له من أنه كان لا يعترف برسالة الإسلام وأيضاً ما قاله بعض المعاصرين عنه من أنه كان منكراً للنبوات جاحداً بالرسالة المحمدية، وكيف يقال عنه إنه كان يجحدها، وله قصيدة رائعة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ختمها بقوله بعد إشادة رائعة به وبرسالته النبوية:

---

(١) اللمم: الذنوب الصغيرة.

(٢) الحمم: ما أحرق من خشب وغيره.

obeikandi.com

فصليّ عليه الله ما ذر شارق ومافت مسكا ذكره في المحافل

واقترن ذلك عنده- كما مر بنا- بالزهد والتقشف وهو فيهما يصدر عن الإسلام وروحه، وحقا كان متشائما تشاؤما عميقا يملأ حنايا نفسه، ولكن كان لا يزال يومض له بريق الأمل في رحمه به وعفوه، يقول:

وما أنا يائس من عفو ربي على ما كان من عمد وسهو

وذهب بعض المعاصرين إلى أنه اتخذ العقل إماماً له، لا يثق ولا يستسلم ولا يلقى مقاليده إلا إليه، لمثل قوله:

كذب الظن لا إمام سوى العقـ ل مشيراً في صُبحه والمساء

وظنوا أن في ذلك ما يتصل من بعض الوجوه لإنكاره- في رأيهم للنبوات، وفاتهم أنه متابع في تمجيده للعقل واعتزازه به للمعتزلة وقد مرت بنا في كتاب العصر العباسي الأول أبيات بشر بن المعتمر المعتزلي الرائعة في تمجيد العقل، وما زال المعتزلة يشيدون به حتى نفذ الجُباني وابنه أبو هاشم إلى إثبات شريعة عقلية بجانب شريعة الوحي السماوي وهي لا تخالفها بل تشهد لها وتسندها. وأبو العلاء يتابع الجباني وابنه، وكان يخالفهما الأشعري، ولذلك حمل عليه أبو العلاء في رسالة الغفران. وكان- مثل المعتزلة- يفسح للظن، إذ الظن أساس المعرفة وأساس ما يصل إليه الإنسان من اليقين وفي ذلك يقول:

أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا

فمبلغ علمه الوصول إلى الظن، وهو بذلك يتفق مع المعتزلة القائلين بأن كثيراً من التكاليف العقلية والشرعية مرجعه في الاجتهاد إلى الظن.

ويذهب بعض دارسي أبي العلاء إلى أنه كان يؤمن بالجبر مكرراً أن الإنسان يدخل الدنيا كارها ويخرج منها كارها، يقول:

خرجت إلى ذي الدار كرها ورحتلي إلى غيرها بالرغم والله شاهد

وأبو العلاء إنما كان يؤمن بالجبر في حياته وموته ووجوده فكل ذلك يحدث بإرادة الله ولا دخل لإرادة الإنسان فيه، إذ لا نخرج إلى الدنيا اختيارا ولا نرحل عنها اختيارا، وهو مالا ينكره عليه أحد من القائلين بحرية الإرادة للإنسان إذ يريد بها المعتزلة- وهو معتزلي مثلهم- إرادة الأعمال وألافعال، ويقدم على ذلك دليلا قاطعا حاسما قائلاً:

إن كان من فعل الكبائر مجبراً فعقابه ظلم على ما يفعل

وهو بذلك ينكر الجبر صراحة فيما يقترف الإنسان من كبائر، ويرتب أبو العلاء عليه- عند القائلين به- نسبة الظلم إلى الله، تعالى عن كون ذلك علوا كبيرا. وهو بذلك يصدر عن فكرة المعتزلة القائلة بوجوب العدل على الله كما يصدر عن فكرتهم أن الإنسان حر تام الحرية في أفعاله وتصرفاته أما ما وراء ذلك من الأعمال الكونية فخاص بالله وارادته العليا ولذلك يقول:

لا تعش مُجبرا ولا قدريا واجتهد في توسط بين بينا

فمذهبه في حرية الإرادة مذهب المعتزلة ومذهبه فيما يخرج عن إرادة الإنسان من نظام الكون والوجود مذهب الجبر ولا يخالفه معتزلي في ذلك، لأن أحدا لا يستطيع أن يقول إنه يولد باختياره أو يموت باختياره، وإنما الجدل بين الجبرية والقدرية في إرادة الإنسان إزاء تصرفاته وهل هو حر مختار يتصرف في أفعاله وأعماله بمشيئته أو هو كريشة في مهب رياح القضاء والقدر تسيره كما تريد.واختار القدرية والمعتزلة الرأى الأول، وهو ما إختاره أبو العلاء بين ما اختاره من ألافكار الاعتزالية وقد صرّح مرارا بما قاله المعتزلة من تنزيه الله عن التجسيد والشبه بالمخلوقات:

ولعل ما أسلفنا من الحديث يوضح في إجمال كيف كان أبو العلاء فيلسوفا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وكيف أن فلسفته كانت تقوم على تشاؤم حاد يُرد إلى فقده لبصره صبيا وإلى ما أطبق على المجتمع لزمنه من شرور ومن حكم فاسد، كما تُرد إلى إحساسه العميق بالآم الإنسانية التي ملأت قلبه لوعة، مما جعله مفكر إنسانياً عظيماً. هذا جانب في فلسفته، وجابن ثان استمده من الدين الحنيف وما فيه من دعوة إلى الزهد والتقشف والإيمان الصادق بالله وملائكته وكتبه وتكاليف الشرعية واليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، مع الاعتقاد بحدوث الكون وكلّ ما فيه من

مادة وزمان وأفلاك وكواكب، فالله خالق الكون ومبدعه قال له: كن فكان. وجانب ثالث في فلسفته استمده من الاعتزال وما فيه من تمجيد العقلو تقديسه، ومن وجوب العدل على الله وتنزيهه عن التجسيد، ومن الإيمان بحرية الإرادة للإنسان وأنه حر كامل الحرية في أفعاله الشريرة الآثمة والخيرة الطيبة.

obeikandl.com

منصور[١] بن المسلم

هو منصور بن المسلم التميمي الحلبي المعروف بالدُميك وبابن أبي الخُرجين، ولد بحلب سنة ٤٥٧ وبها نشأ وحفظ القرآن كعادة لداته " اختلف إلى شيوخه" وشُغف خاصة بالعربية وأساتذتها، فتزود منها خير زاد، وأنس من نفسه رغبة في تعليمها وانتقل عن حلب وسكن دمشق، وتحول بها مؤدبا يعلم الصبيان في مسجد الرماحين وغيره، وظل في هذا العمل يشغل به حياته حتى توفى سنة نيف وعشرين وخمسمائة. وكان يتقن العربية، مما جعله يصنف كتابا في الرد على ابن جنى في كتابه " إعراب الحماسة" ويقول مترجموه إنه دلّ فيه على تعمق في العربية وجودة غوْص. ويقول ياقوت كان له ديوان شعر وقفت عليه بخطه الرائق فوجته مشحونا بالفوائد النحوية، وقد شحر ألفاظه اللغوية واعتنى بإعرابه فدلّ على تبحره في علم العربية". وروى العماد الأصبهاني في الخريدة طائفة من شعره، بينها غزل كثير يدل على رهافة حسه ودقة شعوره من مثل قوله:

أأحبابنا إن خلف البين بعدكم قلوبا ففيها للتفرق نيرانُ

رحلتم على أن القلوب دياركم وأنكمُ فيها على النأى سكانُ

ونمضي معه في هذا الغزل الملتاع وإذا هو يذكر غربته في دمشق، وينتقل من الغزل إلى سرد بعض خبرات له في الحياة، مما تعمق نفسه في غربته الطويلة عن ملاعب صباه وشبابه وعن مجالس إخوانه وخلانه، يقول:

وما باختيرا المرء تشعب نية فتبرح أوطار وتنزح أوطان [٢]

عسى مورد من ماء جوشن ناقع فإني إلى تلك الموارد ظمآنُ

وما كلُ إنسان ينال مراده ويسعده فيما يحاول إمكان

وعش الفتى طعمان حلو وعلقم كما حالهُ قسمان: رزق وحرمان

---

(١) انظر في منصور بن المسلم الخريدة (قسم الشام) ١٦٩/٢ ومعجم الأدباء لياقوت ١٩٤/١٩ وغنباه الروغاة للقفطي ٣٢٦/٣.

(٢) تشعب: تبعد

وهو يألم لغربته ونزوحه عن وطنه، ويتمنى جرعة من ماء الآبار في جبل جوشن المشرف على حلب ينقع بها لهيب ظمئه إلى موطنه وديارة. ويسوق ذلك في عبارات عامة تحيل البيتين الأول والثاني حكمتين بديعتين، وكأنه يريد أن يعزي نفسه فينظم الحكمتين التاليتين، فليس كل إنسان تتحقق مناه ويعيش سعيدا، بل كان إنسان يذوق الحلو والمر في حياته كما يذوق الرضا والحرمان. ويستهل قصيدة أرخى بالغزل أيضا وما يلبث أن يفض إلى الحكم قائلاً:

رأيت الفتى يأتيه ما لا يناله بسعى ولو أنضى الركائب والركبا [١]

ومن رام إدراك المنى بفضيلة فقد رام أمر ليس يدركه صعبا

ويذهب بالود المراء ويمترى حفائظ لا تبقى على صاحب صحبا [٢]

توق قليل الشر خوف كثيرة ولا تحقرن النزر ربتما أربى

فإن صغير الشئ يكبر أمره وكم لفظةٍ جرت إلى أهلها حربا

وهو يتكلم في أول الأبيات عن الحظ وما يغدقه على الإنسان، دون سعي، من منى لو اضنى فيها الركائب والركب ما نالها أبدا، ومهما تذرع لها من فضيلة وخصال طيبة ما دنت قطوفها منه بحال، وينصح الأصدقاء أن لا ينشب بينهم مراء ولا جدال مقيت لأنه يثير حفائظهم ومكامن الغيط منهم ويقطع ما بينهم من صلات. ويوصى الإنسان أن يتجنب قليل الشر حتى لا يقع في وهاده الكثيرة السيئة، وأن لا يظنه- مهما صغر وتضاءل- شيئا لا يؤبه به، فقد ينمو كما تنمو النار من بعض الشرر، وكم من شر قليل قير نما واستفحل واستعصى علاجه، وكم من لفظة حمقاء أوقدت نار حرب مستطيرة. وينثر في قصيدة ثالثة طائفة من الحكم كقوله:

وقد يحبب الإنسان ما فيه نقصه ويبغض ما ينمى به ويزيد

نريد من الأيام تصفو من الأذى وتضفو ولا يقضى بذلك وجود [٣]

وكيف نروم العيش خلوا من القذى وللماء من بعد الصفاء ركود

---

(١) أنضى: أتعب. الركائب: الابل

(٢) يمترى: يستثير: حفائظ جمع حفيظة وهي الغضب والحمية.

(٣) تضفو: تصبح رغدة هانئة.

إذا كان يُعطى المرء ما يستحقه تساوى شقي في القضاء وسعيد

ومن جرب الدنيا على سوء فعلها يعيب ذميم العيش وهو حميد

وقد الهمه البيت الأول قوله تعالى: (وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) ويقول غننا نريد من الأيام صفاء من الشوائب وأن تكون صافية سابغة رغدة ولا تقضى بذلك سنة الوجود، حتى في الطبيعة، فالماء يركد بعد صفاء وحركة دائبة. ولو أن كل شخص نال ما تمنى لخالف ذلك سنة الحياة وأن الناس منهم شقي وسعيد، وجدر بمن خبر الدنيا أن يرضى بميسور عيشه وأن يصبح في رأيه حميدا لا كريها مذموما. ومن طريق شعره.

الناسُ كالأرض ومنها همُ من خشن اللمس ومن لين

مرو توقي الرجل منه الأذى وإثمد يُجعل في العين [١]

وهو تقسيم بديع للناس فهم كأمهم للأرض معادن مختلفة، منهم الصّلد الذي لا يأتي بخبر بل قد يؤذي، ومنهم الكحل النافع الذي يبرئ العين ويزيدها حسنا وبهاءً وجمالاً. ولمنصور وراء ذلك أشعار يدعو فيها إلى الزهد في الدنيا والتقوى والعمل الصالح.

(١) المرو: الحجر الصلد، الإثمد: الكحل.

obeikandl.com

حسين[١] الجزري

هو حسين بن أحمد الجزري الحلبي، ولد بحلب وبها نشأ لزمن العثمانيين فحفظ القرآن الكريم ثم اختلف إلى حلقات الشيوخ والأدباء وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وقصد به الرؤساء والحكام في دمشق والعراق ودخل القسطنطينية واصطفاه بنو سيفا أمراء طرابلس لأنفسهم، فنظم فيهم كثيراً من مدائحه، وفيه يقول ابن معصوم: " أحد صاغة القريض.. العالم بشعار الأشعار والمقتفي لأبكار ألافكار.. راقت بدائع آدابه ورّقت، وملكت روائعه حرّ الكلام واسترقت " ويوقل الشهاب الخفاجي: "أديب له أوصاف حُسني، ومناقب هن الوشي بهجة وحسنا " توفى سنة ١٠٣٤ للهجرة. وله ديوان شعر نشر في بيروت أولا ثم نشره الطباخ مع ديوني مصطفى البابي والفتح بن النحاس في مجموعته: العقود الدرية. وأشعاره موزعه بين المديح والغزل والفخر والشكوى، وكان يشغف بالحكمة ينثرها في الشعر قائلاً:

الشعر ما شاقتك منه حكمة لا ما يشوقك الكثيب الأوعسا [٢]

فليس الشعر في رأيه ما يصور نزعة الحب الإنسانية وإنما الشعر ما يفيد تجربة وخبرة وبصراً بالحياة. وهو لذلك لا يعد الشعر المشوق لديار الحبيبة ومعاهدها من كثبان وعساء وغير وعساء شعرا رفيع المنزلة فأرفع منه ما يزيدك إدراكا بالحياة من حولك، ويعرفك كنهها وحقيقتها، يقول في تضاعيف غزل له:

إن المحبة محنة لا منحة ومن الغرام برى المحب المغرما
وإذا مُنعت الماء أول مرة وورده أخرى تذكرت الظما
في كل يوم روعة أو لوعة والفذ تُقعده الحوادث توأما
ولقد ملئتُ تحاربا وتجارباً لن تلقني إلا إناء مُفعما

وهي أفكار يعطيها صفة التعميم مما يجعلها حكما وأمثال، فالحب محنة لا منحة يضني صاحبه، ومَنْ تصده صاحبته أول مرة كمن يُصد عن الماء وهو شديد الظمأ إذ

---

(١) انظر في ابن الجزري وشعره سلافه العصر ص ٣٩٣ وريحانه الألبا ١١٣/١ وخلاصة الأثر ٨١/٢ وانظر ديوانه في مجموعة العقود الدرية.

(٢) الكثيب:تل الرمل. الأوعس: الذي تغيب فيه الأرجل للينه.

لا يـزال يـذكر ذلـك حتـى لـو أتـيح لـه الـورود، فظمـؤه ولهفتـه القـديمان لا يبرحـان ذاكرتـه، وهـل فـي الحـب إلا صـد وامتنـاع وعـذاب، والمحـب يصـلى الروعـة بعـد الرووعـة واللوعـة بعد اللوعة، ويقول إنه مُفععم بالتجارب كما يُفعم الإناء بالماء، وينشد:

أرى اليأس عزا والرجا ذلة الفتى وطول المنى عجزا وحب الغنى فقرا

فلا تضجرن من حالة مستحيلة كما نلتها عُسرا ستتركها يُسرا

وإن الفتى كالغصن ما دام نابتا فآونة يُكسى وآونة يعرى

وهـو يـرى اليـأس مـن النـاس وتحقيـق الآمـال لا إحـدى الـراحتين فحسـب، بـل عـزا مـا بعـده عـز، كمـا يـرى الرجـاء وخاصـة فـي النـاس ذلا مـا بعـده ذل، واتسـاع الأمـاني عجـزا لا يشـبهه عجـز، والتطلـع إلـى الغنـي فقـراً لا يماثلـه فقـر. فخيـر للإسـنان انيقنـع وأن يرضـى مـن دنيـاه بالكفـاف. ويوصـيه أن لا يضـجر مـن شـدة تنـزل بـه لأنهـا لابـد أن تسـتحيل وتتحـول، فكـل عسـر معـه يسـر، ومـا أشـبه الإنسـان بغصـن شـجرة يُعـرى مـن الأوراق ويُكسى بها كل عام ويقول:

إن خصني بالبؤس دهري داتما دون الورى فأنا بذلك أفضل

هذى عقاقير العطارة كلها لم يحترق منهن إلا المندل

فهـو يتقبـل البـؤس راضـيا ويتعلـل لبؤسـه بأنـه أشـبه مـا يكـون بالمنـدل أو العـود الطيـب الرائحـة فإنـه يحـرق وحـده دون مـا عنـد العطـار مـن صـنوف عطـارة كثيـرة. ويتـردد فـي أشسـعاره ذكـر الحرمـان وأن الكـريم لا تضـره قلـة المـال بينمـا اللئـيم لا يُجديـه ولا ينفعـه الثـراء، ويحـاول أن يجـد لـه ولأمثالـه مـن الأدبـاء والفضـلاء تعلـلات للتضـييق علـى نفـر منهم في الرزق بمثل قوله:

لا تحسب الأرزاق تُقسم باطلاً كلا لقد ساوى المهيمن بينها

فإذا رزقت الجهل أدركت المُنى وإذا حُرمت الجد أعطيت النهى

وكأن أهل الأرض في رأيه اثنان: جاهل ثري له كل ما يأمل ويتمنى وكأن الدنيا طوع أمره، وعاقل (أديب أو عالم) فقير حُرم الجدّ أو الحظ وحرم معه إكسير الحياة من المال والثراء والنعيم، ويقول:

غيربدعٍ إذا ظُلمت بدهر رزق الغمر فيه حظا عظيما

فالهواء الصحيح يُدعى عليلاً واللديغ المصاب يُدعى سليما

وهو يواسي من يحسون بأنهم مظلومون في دنياهم لم ينالوا حظهم الطبيعي من الرزق والعيش الكريم، بينما المغمورون يعيشون في بحبوحة من الثراء والنعيم. ويقول إن النسيم المنعش الصحيح يدعى عليلا واللديغ يدعى سليمان من تسمة الأضداد، ولعل في ذلك بعض المواساة للمظلومين المحرومين. ويقول:

رويدك إن بعد الضيق مخرج وصبرك عنده أبهى وأبهج

وكم من كربةٍ عظمت وجلتْ وعند حلولها الرحمن فرج

وهو يدعو إلى الصبر عند الشدة والضيق إذ لابد من رباطة الجأش دون أي تبرم ودون أي خور وضعف ودون أي يأس،مع الاعتصاد بالله والأمل الدائم في رحمته، وأنه لابد كاشف الكرب والأهوال مهما اشتدت وإن فرجة لقريب، وإنه لدائما مع الصابرين الذين لا ييأسون أبداً من عونه. ولابن الجزري وراء هذه الحكم وما يماثلها في أشعاره– كما قدمنا– مدائح كثيرة، وله فيها أبيات بديعة من مثل قوله:

يُلبيك من قبل السؤال نواله ويأتيك دون الإنتظار نُضارُه

وله أبيات مختلفة في الشكوى من الناس والأصدقاء، وفي عزله أبيات كثيرة جيدة، وقد كان شاعرا محسناً مجوداً.

٦

شعراء التشيع

مرّ بنا في حديثنا عن التشيع أنه عُرف في سلمية بالشام مع حركة عبد الله بن ميمون القدّاح حوالي منصتف القرن الثالث الهجري الداعي لمذهب الإسماعيلية المعروف، وهذا إنما يصدق على تلك الحركة الشيعية. ويبدو أن أفراداً من الشام كانوا يتشيعون قبل هذا التاريخ، لا التشيع الغالي المفرط ولكن التشيع المعتدل المقتصد، ويسكل فيهم بعض الباحثين أبا تمام لمثل قوله عن قصيدة له مخاطباً المأمون [١]:

ووسيلتي منها إليك طريفةُ شامٍ يدين بحب آل محمدِ

وقد ذهبنا في كتاب العصر العباسي الأول إلى أبا تمام لم يكن يصدر في مثل ذلك للمأمون عن تشسيع إنما كان يريد أن يتقرب للخليفة بذكره لآل البيت. ومعروف أن المأمون كتب إلى الآفاق بتفضيل عليّ على أبي بكر وعمر، مما جعل الشارع يشيد بعلي ومواقفه في عهد الرسالة. ويلقانا بعده ديك الجن الحمصي المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة وتشيعه أوضح من تشيع أبي تمام إذ نجد عنده أشعارا في اهل البيت ومرائي تندب الحسين وتبكي مصرعه من مثل قوله في افتتاح إحدى مرائيه[٢]:

يا عين لا للغضا ولا الكثب بكا الرزايا سوى بكا الطرب [٣]

يا عي في كربلا مقابر قد تركن قلبي مقابر الكرب

من البهاليل آل فاطمةٍ أهل المعالي والسادة النُجبِ

كم شرقتْ منهم السيوف وكم رويت الأرض من دم سرب [٤]

ويقول أبو الفرج عن هذه المرثية إنها مشهورة عند الخاص والعام ويناح بها، كما يقول إنه كان يتشيع تشيعا حسنا [١]، فتشيعه كان تشيعاً معتدلاً.

---

(١) الديوان طبع دار المعارف ٥٥/٢.

(٢)الديوان (في طبعاته المختلفة) وأدب الطف أو شعراء الحسين لجود شبر ٢٨٤/١

(٣) شجر الغضا. من أشجار البادية. يقصد بذكره وذكر الكثبان شعر النسيب.

(٤) شرقت: غصت. سرب: سائل

obeikandl.com

ولم تعرف الشام التشيع المفرط الغالي إلا منذ القدّاح ودعوته الإسماعيلية التي اتخذ لها سلمية بالقرب من حمس وحماة مركزا، وأخذ القرامطة يشيعون هذه الدعوة بين بدو الشام، غير أن دمشق ظلت بعيدة عن التشيع على الأقل حتى أوائل القرن الرابع، إذ نجد النسائي صاحب كتاب السنن يلم بها سنة ٣٠٣ وكان يتشيع، فسألوه عن معاوية وما رُوى من فضائله فأبى أن يفضله، فما زالوا يدفعونه من المسجد، ويقال: داسوه بالأقدام. وخرج من دمشق خائفا يترقب إلى الرملة فمات بها. ويبدو أن الدعوى الشيعية- لقيت لها آذانا صاغية بحلب منذ مطالع القرن الرابع، ويلقانا هناك الصنوبري المتوفى سنة ٣٣٤ وكان يتشيع- فيما يبدو- تشيعا معتدلا. ونراه يذكر- ما يؤمن به الشيعة من وصية الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي بالإمامة بعده، وله مراث في الحسين تبكيه بكاء حارا من مثل قوله [٢]:

يوم الحسين هرقت دمـ ... عَ الأرض بل دمع السماء
من ذا لمعقور الجوا ... د مُمال أعواد الخباء
من للطريح الشلو عُر ... يانا مخلى بالعراء
من للمحنط بالتراب ... وللمغسل بالدماء

ومن أهم شعراء الشيعة الإماميين بعده أبو فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٧، ومعروف أن الحمدانيين كانوا شيعة إمامية، ويشتهر أبو فراس بقصيدة ميمية تصور عقيدته الشيعية وفيها هاجم العباسيين هجوما عنيفا ودافع عن العلويين دفاعا حارا، وتسمى الشافية افتتحها بقوله [٣]:

الدين مُخترم والحق مهتضم ... وفي آل رسول الله مقتسم

والفيئ: غنيمة الحرب، وهو يشير إلى فدك وكانت فيئا لرسول الله في غزوته لخيبر والقرى حولها، وكانت السيدة فاطمة الزهراء فكرت في إرثها عن أبيها الرسول صلى الله عليه وسلم، فذكرها أبو بكر الصديق بقوله: " نحن معاشر الأنبياء لا نورث

---

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ١٥/١٤

(٢) أعيان الشيعة ٣٥٦/٩ وانظر أدب الطف أو شعراء الحسين ١٩/٢.

(٣) ديوان أبي فرسا الحمداني (نشر وتحقيق د. سامي الدهان) ٣٤٨/٣

ما تركناه صدقة " فاستجابت تواً لرأيه وكان ينبغي أن يستجيب هل أيضا أبو فراس. والقصيدة في واحد وستين بيتا. ويعلن في ديوانه مرارا أنه شعيي إمامي، ويذكر أئمتهم الاثنى عشر في مثل قوله [١]:

شافعي أحمدُ النبي ومولاي ... عليّ والبنت والسبطان
وعليّ وباقر العلم والصادق ... ثم الأمين ذو التبيان
وعليّ والمتقي ابن عليّ ... وعليّ والعسكريّ الداني
والإمام المهديُ في يوم لا ينـ ... ـفع إلا غفران ذي الغفران

والأئمة الاثنا عشر في الأبيات مرتبون، وهو علي بن أبي طالب وابناه سبطا الرسول، الحسن والحسين وعلي زين العابدين بن الحسين وابنه محمد الباقر وابن الباقر جعفر الصادق وابنه الأمين موسى الكاظم ونجل الكاظم على الرضا وابنه محمد الملقب بالمتقي والجواد ثم ابنه علي الهادي ونجهل حسن العسكري ثم ابنه محمد المهدي ويسميه القائم في مقطوعة ثانية ذكر فيها الأئمة الأثنى عشر حتى انتهى إلى العسكري بن الهادي قائلاً [٢]:

وابنهُ العكسري والقائم المظـ ... ـهر حقى محمد بن عليّ

ويعتقد الإمامية وخاصة الغلاة أن محمدا المهدي لم يمت وأنه غاب وسيعود ويسمونه قائم الزمان. وسنعرض هذه الفكرة عرضا أكثر تفصيلا في حديثنا عن بهاء الدين العاملي. ويلقانا في القرن الخامس الهجري ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ وهو شيعي إمامي، ومن آثار تشيعه في شعره قوله [٣]:

قوالوا قد تغيرت الليالي ... وضُيعت المنازل والحقوق
وأقسم ما استجد الدهر خلقا ... ولا عدوانه إلا عتيق
أليس يُرد عن فدك عليّ ... ويملك أكثر الدنيا عتيق

---

(١) الديوان ٣٩٧/٣

(٢) راجع ٤٢٩/٣ وما بعدها.

(٣) ديوان ابن سنان (طبع المطبعة الأنسية ببيروت) ص ٧٨

obeikandi.com

وهو يأسي لعلي وزوجته فاطمة الزهراء أنها رُدت عن ميراث فدك وقد كانت فكرت كما ذكرنا ذلك آنفا في أن ترثها، وذكرها أبو بكر بحديث أبيها صلى الله عليه وسلم واستجابت له راضية. وكبُرت كلمة تخرج من فم ابن سنان أن يقول عن الصديق الزاهد الذي أنفق أمواله في دعوة الإسلام: إنه ملك أكثر الدنيا، وهو لم يملك شيئا، إن يقول إلا بهتانا وزورا.

وكان يعاصره كشاجم وكان أصغر منه سنا، وكان يتشيع لمذهب الإمامية، وسنخصّه بترجمة عما قليل. وربما كان أهم شعراء الشيعة بالشام في القرن الخامس الهجري ابن حيوس الشاعر الدمشقي، وسنفرد له الآخر ترجمة. ويلقانا بعده عند العماد الأصبهاني في كتابه الخريدة شعراء شاميون شيعيون متعددون عاشوا في القرن السادس الهجري.غير أنه لا يُعنى بشعرهم الشيعي إلا بعض مقطوعات قلما توضح لهم مذهبا أو نحلة، منهم ابن قُسيم الحموي المتوفى سنة ٥٤١ وقد أنشد له العماد في حب آل البيت قوله [١]:

ويد بآل محمد علقت ... مني فلست بغيرهم أرضى

جعل الإله على حبهم ... وعلى جميع عباده فرضا

فأثار ذلك من زنادقة ... حسدا فسموا حبهم رفضا

وعجبت هل يرجو الشفاعة من ... ينوي لآل محمد بغضا

وهو يعلن حبه لآل البيت حبا لا يماثله حب، وهو حب يراه فرضا مكتوبا على كل مسلم مخلص لدينه. ويبدو أنه كان يغلو في هذا الحب غلو الرافضة، إذ يسمى أعداءهم زنادقة، ويعجب أن يكفر في شفاعتهم يوم القيامة مبغض لهم تأكل نار بغضهم قلبه. وكان يعاصره ابن منير المتوفى سنة ٥٤٨ ويقول عنه العماد: كان غالياً متشيعاً [٢] ولم يرو شيئاً من شرعه الشيعي الغالي. وكان طلائع بن رزُيك وزير الخليفتين الفاطميين: الفائز والعاضد شيعيا إماميا، وكان من مقربيه ثقة الملك الحسن من بين أبي جرادة الحلبيين المتوفى سنة ٥٥٥ وله فيه مدائح بها إشارات لبعض عقائد

(١) الخريدة (قسم الشام) ٤٥٣/١.

(٢) الخريدة ٧٦/١

الشيعة [١]، ويبدو أن أسرته كانت تعتنق مذهب الشيعة الإمامية مثلها في ذلك مثل أهل حلب موطنها. ومن شعراء الشام الشيعة في الخريدة عرقلة الدمشقي حسان بن نُمير المتوفى سنة ٥٦٧ وينشد العماد مقطوعة طويلة يذكر فيها تشيعه قائلاً [٢]:

أنا من شيعة الإمام حُسين لستُ من سنةِ الإمام يزيد

وهو يريد يزيد بن معاوية الذي قتل الحسين أيام خلافته، وسماه الإمام تهكما وسخرية. ونظل في زمن الأيوبيين والمماليك نستمع إلى أشعار تبكي الحسين أو تمدح آل البيت على نحو ما نجد عند فتيان الشاغوري الدمشقي المتوفى سنة ٦١٥ للهجرة، ويلقانا في مطالع ديوانه باكيا الحسين ذارفاً عليه الدمع مدراراً منشداً [٣]:

لم لا أُسح بيوم عاشوراء من مقلتي دماً يمازج ماء
يوماً به قتل الحسين بكربلاء قتلا حوى كربا وبه وبلاء

ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر محرم، وفيه استشهد الحسين على نحو ما هو معروف. ولفتيان قصيدة طويلة في حب آل البيت يقول إنه نظمها مؤملاء عفو الله ورضاه، وفيها يشيد بالرسول ورسالته المحمدية الكبرى، ويسترسل في التنويه بعلي بن أبي طالب وانتصاراته المجيدة على أعداء الإسلام وينوه بعلمه وزهده وتقشفه، ثم يفيض في الحديث عن مصرع الحسين المفجع بمثل قوله [٤]:

ألهفي للحُسين غداة أضحى هناك " بكربلا" شلوا قتيلا
يمزَّق جِسْمَهُ دَوْسُ المَذاكى وقد أعلتْ وَلاياُه العَوِيلا [٥]
شَكَا ظمأً فما عطفوا عليهِ ولا أَلْوَوْا ولا أَرْوَوْا غَليلا
رسولُ اللهِ سمَّاه "حُسَيْنًا" وقَبَّل ثَغْرَهُ زمناً طويلاً

---

(١) الخريدة ١٩٩/٢

(٢) الخريدة ٢٠١/١

(٣) ديوان فتيان الشاغوري (طبع مجمع اللغة العربية بدمشق) ٦

(٤) الديوان ص ٨٥٠ والشلو: العضو من الإنسان والجمع أشلاء، كناية عن الموت.

(٥) المذاكي: الخيل، ولاياه: نساء أسرته.

obeikandl.com

ويقسم فتيان مرارا وتكرارا بعلي والحسين وأصحاب العباء أو الكساء إشارة إلى حديث ترويه الشيعة عن أم مسلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: " دخل علي وفاطمة معها الحسن والحسين فوضعهما الرسول في حجرة فقبلهما واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة بالأخرى، وجعل عليهم جميعا كساء أسود وقال: اللهم إليك لا إلى النار ". ولم يكن فتيان غالياً في تشيعه بل كان معتدلا، يشهد لذلك قوله في علي والحسين وآلهما [١]:

لم أَهْوَهُمْ أبدا بِبُغْضي غيَرهم كلاً وَمنْ فَرَضَ الصلاَة ووقَّتا

فهم يقسم بربه فاض الصلاة أنه لم يحب آل البيت مبغضا لأبي بكر وعمر مثل غلاة الشيعة، بل هو يحب الجميع وإن كان حبه لهم أزيد وأكثر، كما تشهد بذلك قصيدته السالفة.

ونلتقى في زمن المماليك بالوداعي المتوفى سنة ٧١٦ ويقول صاحب الفوات: كان شيعيا، ومما يدل على ذلك قوله [٢]:

سمعت بأن الكحل للعين قوة فكحلت في عاشور مقلة ناظري

لتقوى على سح الدموع على الذي أذاقوه دون الماء حر البواتر

فهو قد تكحل في يوم عاشوراء يوم ذكرى مصرع الحسين ليسح الدموع ويذرفها على الحسين الذي قتلوه دون جرعة ماء يحتسبها بالسيوف القواطع، وكان بعض معاصريه يتهمه بالرفض والغلو في التشيع فكان ينكر ذلك منحيا على من يتهمه بالسب واللعن، وفي ذلك يقول [٣]:

قل للذي بالرفض أتـ ـهمني أضل الله قصده

أنا رافضي ألعن الـ ـشيخين أباه وجده [٤]

---

(١) الديوان ص ٦٨

(٢) فوات الوفيات لابن شاكر ١٧٦/٢

(٣) الفوات ١٧٥/٢

(٤) أباء مشدة الباء لصحة الوزن.

وواضح أنه يقول إنه رافضي تهكما على خصومه. ونظل نلتقي بشعر شيعي على هذه الشاكلة لا في أيام المماليك فحسب، بل أيضا في أيام العثمانيين، وممن يُظن تشيعه حينئذ درويش [١] الطاليو المتوفى سنة ١٠١٤ وحسين [٢] بن عبد الصمد العاملي وهو أبو بهاء الدين العاملي أكبر شعراء الإمامية حينئذ، وسنترجم له عما قليل.

كُشاجم[٣]

هو أبو الفتح محمود بن محمد بن الحسين بن السندي بن شاهك اشتهر بلقبه كشاجم، وضبطه صاحب القاموس بضم الكاف، وفي تاج العروس شرح القاموس وشرح درة الغواص للشهاب الخفاجي أنه يفتحها، وقيل إن هذا اللقب مركب من أوائل كلمات تدل على صناعاته، فالكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من جميل والميم من منجم أو من مغن، وفي ذيل زهر الآداب: "أنه كان مغنيا وله في الغناء كتاب مليح".

وكان جده السّندي من حرس الرشيد ويوقل ابن خلكان في ترجمته لموسى الكاظم الإمام عند الشيعة الإمامية: " وكان الموكل به في مدة حبسه السندي بن شاهك" وربما تلقن عنه حينئذ عقيدة الإمامية، وبقيت العقيدة منذ هذا التاريخ في بيته. وأصبح أسرته بعده فيها إذ يُسلك حفيده كشاجم في شعراء الشام، وكان يسكن في شبيبته بلدة الرملة بفلسطين. ونظن ظنا أنه ولد لأبيه حوالي سنة ٢٩٠ للهجرة. ويبارح الرملة والشام جميعا في سن مبكرة إلى الموصل حيث التحق بخدمة أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة، وكن قد ولى الموصل مرارا بين عامي ٢٩٣ و ٣١٧ وبها انعقدت بين الشاعر وبين الشعراء هناك صلات مودة وخاصة بينه وبين الخالدين. وينزل عند سيف الدولة الحمداني أمير حلب، ويقال إنه كان يُشرف على إعداد طعامه أو على مكتبته. ويبدو أنه لم يمكث عنده طويلا. ونزل مصر وأقام بها فترة، وأرسل حينئذ إلى

---

(١) ريحانة الألبا ٦٣/١ وما بعدها.

(٢) أعيان الشيعة ٢٢٦/٢٦ وروضات الجنات ٢٥/٢

(٣) انظر في كشاجم وشعره والشذرات الذهب لابن العماد ٣٧/٣ وحسن المحاضرة للسيوطي ٥٦٠/١ والمنتخل للثعالبي ص ٣٥٢ وأعلام الكلام لابن شرف القيرواني وذيل زهر الآداب ص ١٠٧ وذكر له الشريشي في شرحه لمقامات الحريري طائفة كبيرة من شعره، وديوانه مبطوع ببيروت، وراجع في السندي جده ترجمة موسى الكاظم في ابن خلكان والحيوان للجاحظ ٣٩٣/٥ والتنبيه والإشراف للمسعودي (طبعة الصاوي) ص ٣٠٢ وبعة أوربا ص ٣٤٩.

جعفر بن علي أمير الزاب قصيدة في مديحه أثابه عليها بألف دينار كما يقول ابن شرف القيرواني، وترك مصر إلى الشام ثم عاد إليها وهو ينشد.

قد كان شوقي إلى مصر يؤرقني فالآن عدتُ وعادت مصر لي دارا

وتروى روايات مختلفة عن تاريخ وفاته، فقيل توفى سنة ٣٥٠ وقيل بل سنة ٣٦٠ ولعل التاريخ الأخير هو الصحيح.

وهو يتناول في شعره الأغراض المختلفة المعروفة من مديح ورثاء وشكوى وهجاء وخمريات ووصف للطبيعة والأطعمة وأدوات الحضارة. وله أشعار مختلفة في الصيد والطرد وله كتاب فيهما سماه المصايد والمطارد، وأيضا له كتاب في أدب النديم وهما منشوران. وكان شيعيا إماميا إما- كما قلنا- مثل أهل بيته وإما استقلال منه ودراسة للنحلة دفعته إلى اعتناقها، ويشهد لذلك ما رواه ابن شهر آشوب " إن صحّ ما وراه- من قوله:

نبيي شفيعي البتول وحيدر وسبطاه والسجاد والباقر المجد

بجعف بموسى بالرضا بمحمد بنجل الرضا والعسكريين والمهدى

والبتول: السيدة فاطمة الزهراء، وحيدر: الإمام علي، ويتوالى بعده أئمة الإمامية أو الاثنى عشرية وهم اثنا عشر إماما: علي، والحسن والحسين ابناه سبطا رسول الله، والسجاد: علي زين العابدين بن الحسين والباقر ابنه محمد، ورخّم جعفر في قسمه، والترخيم في غير المنادى شاذ، وموسى هو موسى الكاظم الإمام السابع، والرضا هو علي الراض ابنه، و محمد هو محمد الجواد نجل الرضا، ويليه على الهادي فالحسن العسكري، وقد سماها العسكريين والمهدي هو محمد المهدي المنتظر الذي مات صبيا حوالي ٢٦٠ للهجرة. وسماهم جميعا كشاجم- كما رأينا- في بيتيه واتخذهم شفعاء له عند ربه، مما يقطع- إن صح أنه ناظم البيتين- بتشيعه وإماميته أو اعتناقه نحلة الإمامية.

وفي ديوان كشاجم ثلاث قصائد طويلة، يبكى في أولاها الحسين ومن قُتلوا معه من آله في كربلاء قائلا في مطالعها:

يا بؤس للدهر حين آل رسول　　الله تجتاحهم جوائحه
أظلم في كربلاء يومهم　　ثم تجلى وهم ذبائحه
لا برح الغيثُ كل شارقة　　تهمى غواديه أو روائحه [١]
على ثرى حلة ابن بنت رسول　　الله مجروحة جوارحه
وسيق نسوانه طلائح أحزان　　هادي بهم طلائحه

والقصيدة تفيض- على هذا النحو- أسى ولوعة لمقتل الحسين وبعض آله معه، ويسمى ذلك ذبحا، فيبلغ كل ما يريد من التأثر لسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويدعو له الغيث أن يظل يهمي كل شاقة أو كل يوم على الثرى الذي ضم هذا الجسد الطاهر الجريح. ويصور بشاعة العدوان الأثيم حين ساق مرتكبوه نساء آل البيت منهكات معييات، حتى لقد أصاب الإبل التي حملتهن ما أصابهن من الإعياء والإجهاد والكلال. ويمضي في القصيدة فيتحدث عن علي بن أبي طالب وشجاعته وبأسه وخدماته للإسلام ورسالته، كما يتحدث عن علومه الزاخرة. ويستهل كشاجم القصيدة الثانية، وهي همزية بإعلان حبه لأهل الكساء الخمسة الذين تحدثنا عنهم: الرسول والسيدة فاطمة وعلي بن أبي طالب وابناه: الحسن والحسين. ويذكر ما يعتقده الشيعة من أن الرسول أوصى بالإمامة لعلي في غديرخُم، ويذكر أن له معجزات جمة وأنه بحر علوم ساوية، ثم يأخذ في بكاء الحسين وأن الأمويين ثأروا فيه لقتلاهم في غزوة بدر يقول:

لئن وتر القوم في درهم　　لقد ثأر القوم في كربلاء
بها هُتكت حرم المصطفى　　وحل بهن عظيم البلاء
وساقوا رجالهم كالعبيد　　وحازوا نساءهم كالإماء
ولو كان جدهم شاهداً　　لشيّع أظعام بالبكاء

والأبيات بالغة التأثير في وصفها لهول يوم كربلاء وما كان فيه من هتك لحرمة نساء آل البيت ورجالهم أما الرجال فساقوهم سوق العبيد، وساقوا النساء سوق الإماء،

(١) الشارقة هنا اليوم وأصله الشمس. والغوادي والروائح: السحب الممطرة صباحا ومساء. تهمي: تصب وتسيل.

فيا للفظاعة، ولو شاهد الرسول هذه المأساة ما اكتفى بالدموع كما يقول كشاجم، بل لأعاد غزوة بدر ثانية، دفاعا عن سيطه وآله.

ويُلم كشاجم في القصيدة الثالثة بالحسين وآل البيت وما أصابهم في كربلاء إلماما سريعا، وكأنما اراد أن يفردها لعلي سيد الأوصياء كما يقول، الجواد البطل، ويسترسل في فضائله قائلاً:

وكسم شبهة بُهداه جلا وكم خطة بحجاه فصل
وكم أطفأ الله نار الضلال به وهي ترمي الهدي بالشعل
وكم رد خالقنا شمسه عليه وقد جنحت للطفل
وكم ضرب الناس بالمرهفات على الدين ضرب غراب الإبل

وحقا كان عليّ ملهما في معرفة الحكم الفاصل في أي مشكلة تعرض له أو لغيره، حتى قال فهي عمر: قضية ولا أبا حسن لها، وكم أعز الله به الإسلام، وكم ضرب السيوف المرهقة أعداء الإسلام ضرب العرب لغرائب الإبل. أما أن الشمس كانت تُرد عليه حني تجنح للغروب فتلك مبالغة، عليّ في غنى عنها، بل هي بهتان، ومثلها بهتانا ما زعمه في القصيدة من تفضيل عليّ درجات فوق أبي بكر الصديق، فقال إن الرسول نحّاه عن الصلاة بالناس حين اشتد به المرض، وقد صلى بالناس سبع عشرة صلاة، وصلى به الرسول مؤتما ركعة ثانية من صلاة الصبح ثم صلى الركعة الباقية وقال: " لم يُقبض نبي حتى يؤمه رجل من قومه". وكل ذلك متواتر معروف غير أن غلاة الشيعة ينكرونه. ولا يلبث أن ينحي باللائمة، بل أن يهجو– غير خجل ولا مستح– أبا بكر وعمر، لأنهما منعا السيدة فاطمة حقها في ميراث الرسول وما آل إليه في غزوة خيبر، وهما إنما صدعا في لك عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة" ولعل في ذلك كله ما يدل على تشيع كشاجم وغلوه في تشيعه.

ابن حيّوس[١]

هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الدمشقي، كان جده حيوس على شئ غير قليل من الثراء مما جعله يشيد بدمشق داراً فخمة توارثها بنوه من بعده إلى زمن الشاعر. وكانت أمه بنت قاضي غوطة دمشق، فهو قد ورث الثراء عن آبائه، والعلم عن جده لأمه وأخواله. ولد لأبيه بدمشق سنة ٣٩٤ وحفظ مثل لداته القرآن وأخذ يختلف إلى العلماء وفي مقدمتهم خاله ابن الجندي الغساني، وكانت دمشق حينئذ تابعة لمصر، ويبدو أن أباه كان موظفا في دواوينهم هناك إذ نجد أحد قواد الحاكم بأمر الله الفاطمي المسمى أنوشتكين الدزبري ينزل ضيفا على أبيه لسنة ٤٠٦. ويعود فيما بعد حاكما لدمشق سنة ٤٢٠ حتى سنة ٤٣٣. وكانت موهبة الشاعر تفتحت، فانعقدت صلة وثيقة بينهما وأخذ كل منهما يهدي صاحبه هدايا عظيمة، الشاعر يهديه روائع من مديحه بلغت أربعين قصيدة، والدّ زبرى يهديه أموالا جزيلة. ويتولى دمشق بعده ناصر الدولة الحسن بن الحسين الحمداني حتى سنة ٤٤٠ وله فيه عشر مدائح ويخلفه على دمشق حيدرة بن الحسين بن مفلح، ويتلوى مرارا متقطعة حتى سنة ٤٥٥ وله فيه قصيدة واحدة. ويبدو أنه اتجه في ولايته على مدينته إلى القاهرة، فلزم الحسن بن علي اليازوري وزير الخليفة الفاطمي المستنصر من سنة ٤٤٢ إلى سنة ٤٥٠ وقدم إليه إحدى عشرة قصيدة، بعضها قدمها إليه في القاهرة وبعضها أرسلها إليه من دمشق. وولي الوزارة بعده أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي فمدحه بقصيدتين وعُزل سريعا فمجح الوزير بعده بمدحة واحدة.

وفي هذه السنوات التي تبلغ أكثر من ستين عدا كان ابن حيوس شاعر ولاة الدولة الفاطمية الإسماعيلية ووزرائها وكان يصدر عن عقيدتها في مدائحهم، وتضطرب الأمور في القاهرة ودمشق، ويصمت الشاعر إزاءها حتى إذا ازداد الاضطراب في دمشق وخشى الشاعر على نفسه من استيلاء السلاجقة السنيين أعداء الفاطميين الإسماعيليين عليها رأيناه يهاجر منها لسنة ٤٦٤ إلى طرابلس وبنى عمار ولاتها،

---

(١) انظر في ابن حيوس وشعره ابن خلكان ٤٣٨/٤ وزبدة الحب (نشر د. سامي الدهان) ٤٠/٢ والوافي ١١٨/٣ وعبر الذهبي ٢٧٩/٣ وشذرات الذهب ٣٤٣/٣ ومقدمة ديوانه لخليل مردم وقد حققه ونشره في مجلدين (طبع المجمع العلمي العربي بدمشق).

ويتصادف لقاؤه فيها بعلي بن منقذ صاحب حصن شيزر فينصحه أن يصحبه إلى محمود بن نصر المرداسي صاحب حلب فإنه سيجد عنده الظل الظليل، وكان يغلب على الناس هناك مذهب الشيعة الإمامية. فلم يجد الشاعر بأسا من تلبيته النصيحة، وقدم على الأمير محمود بن نصر، فمدحه بقصيدة بديعة وأعطاه ألف دينار، وما زال الشاعر يوالي مدائحه فيه إلى وفاته سنة ٤٦٧ حتى بلغت عشرا وهو يوالي عطاياه عليه. وخلفه ابنه نصر، فمضى يجزل للشاعر في العطاء حتى بلغت مدائحه فيه مدة إمارته، وكانت عاما، عشر قصائد، وولى بعده أخوه سابق وظل يوالي عطاءه له حتى قضى مسلم بن قريش العقيلي لسنة ٤٧٣ على آل مدراس مستوليا منهم على حلب، ومدحه ابن حيوّس بقصيدة طنانة يقول له فيها.

أنت الذي نفق الثناء بسوقه وجرى الندى بعروقه قبل الدم

وأجازه بألفي دينار، وفي نفس السنة توفى ابن حيوس عن نحو ثمانين عاماً. ولا ريب في أن ابن حيوس انصرف عن عقيدته الإسماعيلية حين ولي وجهه نحو بنى مرداس، ونراه يجاهر بذلك قائلاً:

وكل نوء بمصر جادين زمنا فداء نوء سقاني الري في حلب

وشاء له القدر أن يهدر مسئوليته لآل مرداس في الأيام الأخيرة من حياته بعد أن أثروه– كما يقول ابن خلكان– وأسبغوا عليه نعما ضخمة، مما جعله يبنى دارا فخمة له بحلب، وكان قد كتب على بابها:

دار بنيناها وعشنا بها في نعمةٍ من آل مرداس
قل لبنى الدنيا إلا هكذا فليصنع الناس مع الناس

ولم ينفعهم ما صنعوه فبمجرد أن أزال مسلم بن قريش العقيلي دولتهم أستأذنه في إنشاد مديحه. ومن المؤكد أنه ظل إلى سن الستين يستلهم العقيدة الإسماعيلية الفاطمية في مدائحه لولاة الفاطميين بدمشق ووزرائهم بالقاهرة إما عن اقتناع بها وإما رياء لذوى السلطان وقد تحدثنا عن هذه النحلة في كتابينا " العصر العباسي الثاني" و "عصر الدول والإمارات" وأوضحنا مبادئها وكيف أن داعيتها القداح اتخذ سلمية بالقرب من

حماة مركزًا لها، وكانوا يزعمون أن تاريخ العالم ينقسم إلى حلقات وكل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة وسابعهم الإمام الناطق الذي ينسخ بشريعته الشرائع. وقالوا إن جسم الإمام ليس جسماً مادياً، بل هو شبح يكن فيه اللاهوت النوراني ويبالغ بعض شعرائهم فيزعم أن الإمام صفو شفاف لا تشوبه الأكدار، فهو نوراني خالص. وأضفوا بعض أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم على أئمتهم وجعلوهم علة الوجود ومدبّري الكون إلى غير ذلك من مبادئ تصور غلوهم المفرط. ومن هذه المبادئ قبس ابن حيّوس في مدحه للدزبري سنة ٤٢٧ قوله في مديح المستنصر حين ولى الخلافة بعد أبيه الظاهر لدين الله:

أمت خلافته ريح الندى يسرا وظل نشر الدنا من نشرها عطرا [١]

وخُص بالشرف المحمض الذي ارتفعت له النواظر والنور الذي بهرا

هم الألى أخذ الله العهود لهم والناس ذر على من بر أو فجرا [٢]

لأجلهم خلق الدنيا وأسكنها وذنب آدم لولاهم لما غُفرا

وإن آلاءه مالا يحيط بها وصف على أنها تستنطق الحجرا

مناقب عدد الأنفاس ما تركت لفاخر من جميع الناس مفتخرا

وواضح أنه في البيت الثاني يشير إلى اللاهوت النوري المتنقل في الأئمة- بزعم الإسماعيليين- حتى انتهى إلى المستنصر. ويزعم أن الله اتخذ على الناس عهدا بطاعتهم قبل خلق العالم وأنهم علة الوجود، ولولاهم لم يغفر ذنب أبيهم آدم. ويقول إن آلاء المستنصر ونعمه لا يحيط بها وصف وكأنها آلاء الله العيّ. ويكثر ابن حيوس من ذكر إمام العصر وغياث المسلمين وتنقل النور في الأئمة وان طاعتهم فرض، يقول للدزيري في إحدى قصائده:

يا سيف من عصيانه وولاؤه جعلا شقيا في الورى وسعيدا

فالسعيد من أطاع الإمام الفاطمي والشقي حطب النار من عصاه. ونراه في مديح الوزير اليازوري يحضره مرارا على العراق وقد جعل موضوعا لقصيدة دالية له تدبير

(١) أمت: قصدت، يسرا: سهلا، النشر: الريح الطيبة والطيب ~، والدنا: جمع دنيا

(٢) الذر: ما يرى في شعاع الشمس الداخلي من النافذة.

اليـازوري المعـروف لفتنـة البساسـيري فـي سـنتي ٤٤٧ و ٤٤٨ واسـتيلائه علـى بغـداد والموصل ودعوته فيهما للخليفة الفاطمي، وفيها قول للخليفة العباسي القائم بأمر الله:

عجبتُ لمدّعي الآفاق مُلكا وغايته ببغداد الركود

ومن مستخلف بالهون راضٍ يُذاذ عن الحياض ولا يذود

وهـو يريـد أن لكـه لا يتجـاوز بغـداد، وأنـه يرضـى بـالخزى والـذل والصـغار إذ لـيس فـي يـده مـن الحكـم والسـلطان شـئ مـع الملـك السـلجوقي طغرلبـك. ومـا يـزال يـدور فـي الفلـك الإسـماعيلي الفـاطمي حتـى سـن السـتين إذ ينـزل حلـب عنـد محمـود بـن نصـر المرداسـي وكـان قطـع الخبطـة للخليفـة الفـاطمي المستنصـر وخطـب للقـائم بـأمر الله فأنشـده مدحـه يقول فيها:

ولك الأدلة أوضحت حتى رأى إثبات فضلك من رأى التعطيلا

غروا بأن شرقت عنهم مذهبا في الرأى ما عرفوا له تأويلا

وهـو فـي البيتـين يعـرّض بالفـاطميين وأنهـم يـدعون إلـى تعطيـل إرادة الله وإنفـاذ إرادة الأئمـة، كمـا يـدعون دعـوة واسـعة إلـى التأويـل فـي القـرآن الكـريم حسـب عقيـدتهم وأهـوائهم، وكأنـه يريـد أن يعلـن تبـرؤه مـنهم وأنهـم ضـالون مضـلون. وأشـعار ابـن حيـوس تمتـاز بـالقوة والصـلابة والجزالـة والنصـاعة، ويسـتخدم فيهـا أحيانـا المحسـنات البديعيـة دون إسـراف أو إفراط.

بهاء الدين[١] العاملي

هـو محمـد بـن حسـين بـن عبـد الصـمد العـاملي، كـان أبـوه مـن فقهـاء المـذهب الإمـامي الشـيعي ينتقـل فـي بلـدان الشـام ولبنـان، ثـم رحـل إلـى إيـران فتنقـل بـين بلـدانها وأوغـل فيهـا حتـى هـراة فـي أفغانسـتان. واسـتقر بـه المقـام فـي " البحـرين" حيـث تـوفي بهـا سـنة ٩٨٤ وقـد ولـد لـه ابنـه بهـاء الـدين فـي بعلبـك سـنة ٩٥٣ وصـحبه معـه إلـى إيـران، وحببـت إليـه الرحلـة مثـل أبيـه، فجـاب الـبلاد الإيرانيـة والعربيـة. وزار مصـر وبهـا ألـف كتابـه " الكشـكول"

(١) انظر في بهاء الدين العاملي وشعره سلافة العصر لابن معصوم ص٢٨٩ وريحانة لالبان للخفاجي ٢٠٧/١ ونفحة الريحانة ٢٩١/٢ وكتابه الكشكول (طبعة الحلبي) ١٧٦/١، ١٩٧ وفي مواضع متفرقة وخلاصة الأثر ٤٤٠/٣ وروضات الجنات ٥٣٢ والذريعة ٢٩/٢، ٦ /٢٤٠.

المنشور في مجلدين كبيرين، وهو موسوعة أدبية عرض فيها بهاء الدين معارفه أو قل بعض معارفه في الحديث النبوي والدراسات الدينية واللغوية والصوفية والاعتزالية والفلسفية والفلكية سوى ما فيه من أشعار كثيرة تدل على ذوق جيد. وعلى غراره كتابه " المخلاة". وبعد ثلاثين سنة من رحلاته في البلاد الإيرانية والعربية ألقى عصا تسياره في أصفهان، وقرّبه سلطانها شاه عباس وأكثر من إغداقه عليه، وولاه مشيخة العلماء الإمامية في أصفهان حتى وفاته سنة ١٠٣١ للهجرة. وفي أثناء إقامته بمصر انعقدت صداقة بينه وبين محمد بن الحسن البكري وبالمثل انعقدت صداقة بينه وبين الحسن البوريني في دمشق. وقد هيأته إمامية أبيه ونشأته في إيران مركز المذهب الإمامي إلى أن يصبح فقيها إماميا كبيرا، والى أن يؤلف كتباً في الحجاج للمذهب بالعربية والفارسية، وله مؤلفات كثيرة في التفسير وفي الأصول وفي الفقه وفي العربية وفي الفلك، وكان شاعرا مبدعا.

ويقول الشهاب الخفاجي: "شعره باللسانين العربي والفارسي مهذب محرر، وبالفارسية أحسن وأكثر" وأنشد له الخفاجي في الريحانة وابن معصوم في سلافة العصر ولمحبي في نفحة الريحانة وخلاصة الأثر أشعارا كثيرة تتناول أغراضا مختلفة: غزلا وخمرا ومديحا ورثاء، وأنشد له مترجموه رباعيات متعددة. وهو في شعره ليس إماميا فحسب، بل هو إمامي غال. وكان الامامية يعتقدون أن إمامهم الثاني عشر محمداً المهدي المنتظر لم يمت حوالي سنة ٢٦٨ وإنما اختفى وسيعود، ويسمونه إمام [١] الوقت وقائم الزمان، ويؤمنون أن بعض الصفوة من علمائهم على اتصال شخصي به وأنهم يستوضحونه بعض المسائل الشرعية، ويفصح لهم عن رغباته وأوامره، بل إنهم يجعلونه خليفة الله المصرف لشئون الكون والعباد، ولبهاء الدين قصيدة عن هذا الإمام صاحب الزمان أو قائمة يغلو فيها هذا الغلو المفرط أنشدها في كتابه الكشكول وفيها يقول:

خليفة رب العالمين وظله على سكان الغبراء من كل ديار [٢]

---

(١) راجع في غمام الوقت عند الإمامية الاثنى عشرية العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسير (طبع القاهرة) ص ١٩٧، ٣٤٤ وما بعدها.

(٢) ديار: ساكن دار. الغبراء: الأرض.

obeikandl.com

هو العروة الوثقى الذي من بذيله تمسك لا يخشى عظائم أوزار

علوم الورى في جنب أبحر علمه كغرفة كف أو كغمسة منقار

به العالم السفلي يسمو ويعتلي على العالم العلوي من غير إنكار

همام لو السبعُ الطباقُ تطابقت على نقض ما يقضيه من حكمه الجاري

لُنكس من أبراجها كل شامخ وسُكن من أفلاكها كل دوار

أيا حُجة الله الذي ليس جاريا بغير الذي يرضاه سابق أقدار

ويا من مقاليد الزمان بكفه وناهيك من مجد به خصه الباري

وبهاء الدين يعل محمداً المهدي الغائب في رأي الإمامية خليفة الله في تنفيذ أحكامه على الناس وظله الذي يستظل به كل مظلوم، ويجعله العروة الوثقى أخذا من الآية الكريمة: (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو مسحن فقد استمسك بالعروة الوثقى) ويجعل من يتمسك به تغفر له ذنوبه، ويبالغ في سعة علمه اللدّني بالقياس إلى علم الناس الذي لا يُعد شيئا مذكورا بجانب بحار علومه. ويزعم أن العالم السفلي وهو الأرض شرف به وفضل على العالم السماوي، ويزعم أن السموات السبع لو اتفقت على نقض ما يبرمه لانقلبت أبراجها وخرجت من قواعدها وسكن منها كل دائر متحرك من أبراجها. ويصفه بأنه حجة الله على الخلق وأن الأقدار الإلهية طوع أمره لا تعصاه أبدا وأن مفاتيح الزمان وخزائنه بيده. والقصيدة تمتلئ بهذا الغلو المفرط الذي يجعل هذا الإمام لا يزال حيا يصرّف أمور الكون، ويدبر شئون العباد، ويعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء، ومقاليد الدنيا بكفه، وكل شئ يجري فيها بإرادته، وكأن قائم الزمان فوق جميع الأنبياء والمرسلين. وهو غلو ما يماثله غلو.

وطبيعي وقد بلغ بهاء الدين من الغلو في عقيدته كل هذا المبلغ أن يدعو إلى سب من وقفوا في رأي الشيعة– ضد على وحقه في الخلافة وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق على نحو ما نلقاه في مثل قوله:

يا أيها المدّعي حب الوصيً ولم يسمح بسب أبي بكر ولا عُمرا

كذبت والله في دعوى محبته تبتْ يداك ستصلى في غد سقرا

فغن تكن صادقا فيما نطقت به فابرأ إلى الله ممن خان أو غدرا

وأنكر النص في خم وبيعته وقال إن رسول الله قد هجرا

أتيت تبغي قيام العذر في فدك أتحسب الأمر بالتمويه مستترا

وبهاء الدين يجعل سب أبي بكر وعمر فريضة من لم يؤدها صلى نار الجحيم وعذابها الأليم، ويدعو صاحبه أن يبرأ من الشيخين الجليلين- كبرت كلمات خبيثة تخرج من فمه- ويعلل لما قاله بأنهما أنكرا نصّ غدير خم ووصية الرسول صلى الله عليه وسلم فيه لعلي بالإمامة والخلافة، وهو نص لم يثبت، بل الثبات أن الرسول استخلف أبا بكر عنه في الحج حتى إذا مرض استخلفه في الصلاة كما هو معروف. وكل ذلك يؤذن بأن الرسول استخلف أبا بكر الصديق بعده واستخلف أبو بكر عمر، وبها انتشر الإسلام وفتح العالم القديم له أبوابه. ويتعلل بهاء الدين بأنهما منعا السيدة فاطمة الزهراء رضوان الله عليها من إرث فدك فيئ رسول الله، وإنما منعاها بوصية الرسول- كما ذكرنا مرارا- إذ قال: " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة". وما من ريب في أن للشيخين الجليلين قدسية عظيمة في الرفض، سواء في مهاجمته أبا بكر ومر أو في خلعه على الإمام القائم صفات الله وكأنه يشكره في تدبير الكون وتسخير المقادير، تعالى الله علوا كبيرا عن كل مالجّ فيه من رفع إمامه الخفي عن المستوى البشري حتى للأنبياء المصطفين الأخيار.

obeikandl.com